الفصل الثاني

غريغوري السادس والسنوات الألف الأولى

لم يكن يشوعا بن يوسف النجار[1] بحاجة إلى التحول، إذ لم يكن هنالك من شيء يطمح إليه، فقد ولد يهودياً، وأجري له الختان في اليوم الثامن من مولده طبقاً للعادات اليهودية القديمة، ومات على الدين اليهودي[2] وقد أعلن على الورقة التي ثبتت على الصليب الروماني الذي صلب عليه في الجلجلة[3] للعالم الفلسطيني الصغير بهزء وازدراء، أن الشخص المصلوب والموجود بين اثنين من اللصوص يدعى يسوع الناصري، وهو رجل تخيل نفسه ملك اليهود، ولم تكن هنالك أية كنيسة ترتل الأناشيد الجنائزية الحزينة، وقد مات ببطء على الصليب ينشد المزمور العبري حسب النص الآرامي، ويقول: «إلهي إلهي لماذا تخليت عني؟»، وفي حياته القصيرة التي قضاها بالوعظ والإرشاد، أنذر تلاميذه وحذرهم من خطر تحول الوثنيين، فقد وجه عظاته بصورة خاصة «إلى الخراف الضالة من بني إسرائيل»، ولم يستطع أحد أن يتجاسر بترك تلك البلاد والمغامرة بالدخول إلى العالم الهلنستي المنهار، لهذا ظل تلاميذه وأتباعه يتجولون بأعداد صغيرة حول شواطئ طبرية الجميلة، وقد أوقفوا أنفسهم على خدمة المرضى والمحرومين من

---

(1) كذا بكل وقاحة وصلف، فالمسيح ليس ابناً ليوسف النجار، ويوسف النجار ـ إن وجد ـ لم يتزوج السيدة العذراء لا قبل ولادتها للسيد المسيح ولا بعد ذلك، وهذه مسألة أجمعت عليها الكتابات والأبحاث المنصفة والموثقة.

(2) الموقف الإسلامي والمسيحي، من قضية موته معروفة، ثم من المجمع عليه أنه جاء برسالة سماوية جديدة استهدفت إصلاح، وإكمال رسالة النبي موسى عليه السلام، فهكذا الأنبياء عليهم السلام، فموسى لم يكن أول نبي، ولا صاحب أول رسالة، يضاف إلى هذا أن اليهودية الحالية شيء وما جاء به موسى شيء آخر تماماً، والفارق الزمني بين موسى وأقدم نسخة مدونة من التوراة تصل في بعض التقديرات إلى ألفي عام فقط.

(3) الجلجلة: هي الجمجمة أو أكرا، المكان الذي قالوا تمت فيه حادثة الصلب، والجلجلة المكان دون الذي وقف فيه المصلوب قبل صلبه، حيث استراح، وحيث حمل الصليب إلى الذروة، أي الجمجمة وثبت هناك في صدع في الصخر.

الإسرائيليين الذين فقدوا الأمل في خلاصهم وخلاص شعبهم من نير الحكم الروماني العسكري، ومن جباة الضرائب الرومان، ولم يفكر هؤلاء الأتباع والتلاميذ بتشييد أية كنيسة منفصلة، فالكنس اليهودية كانت كافية وجيدة، ولم يكن من الضروري نبذ أو طرح الشريعة اليهودية المدونة في التوراة والتي فسرها الربانييون اليهود، وقد اعترف يسوع بها، واحترم كل صغيرة وكبيرة في تلك الشريعة، واعتقد أيضاً أن نهاية هذه البشرية أصبحت وشيكة وأن حكم روما، وحكم الربانيين سوف ينتهي وتحل محله مملكة الرب، وقد تقبل أتباعه الذين أجريت لهم عملية الختان في أجسادهم وقلوبهم أيضاً، جميع المصاعب التي نتجت عن هذه الرسالة الجديدة بكل سرور، أما الآخرون الذين لم يختتنوا فلم يتصد لهم أحد، ولهذا فقد توفي المسيح دون أن يؤسس أي دين جديد، إنه لا جدوى من الافتراض أن الجماعة الصغيرة التي تبعت يسوع كان بمكنتها أبداً أن تبطل التقاليد اليهودية الرسمية في فلسطين وتنسخها، لأن هنالك سبباً وجيهاً يجعلنا نشك في هذا الأمر، فهاهنا مجتمع يهودي منظم تنظيماً حسناً يعود في تاريخ أنبيائه وشريعته إلى عصر إبراهيم وموسى، لا بل حتى إلى بداية خلق هذا العالم، وهو يعتقد أنه شعب الله المختار، على أفراده أن يحبوا جيرانهم كما يحبون أنفسهم[1]، ويجب أن يمشوا بتواضع في طريق الرب ويخدموه بمراعاة أصول العدالة والحشمة واللياقة، أما الجماعات التي التفت حول يسوع فكان أفرادها فقراء قليلي العدد يتمركزون بصورة رئيسة حول بحيرة طبرية، وهو المكان الذي تركز به نشاط المسيح، واستمروا حتى بعد وفاة المسيح في التبشير في الكنس اليهودية للفريسيين ولم يقلبوا ظهر المجن لليهود أبداً، فقد استبدت بهم فكرة رسالة المسيح، وأن مملكة الرب

(1) في هذا تدليس واضح وتناقض متعمد، فكيف يمكن التوفيق بين فكرة التساوي مع الجيران والآخرين، وفكرة الشعب المختار، وهذه مسألة كان موقف التراث اليهودي منها واضحاً إلى درجة لا نظير لها لدى جميع المخلوقات من بشر وحيوانات، جميع المخلوقات مارست سياسة الاحتفاظ بالنوع، وقهر القوى الأخرى المستغلة والمسيطرة إلا الشريعة اليهودية فقد طلبت من أتباعها إفناء الخصوم جميعاً بلا استثناء كما حدث لمدينة أريحا حسب قولهم حين دخلها يشوع، وكما نرى في أيامنا هذه وينسجم مثل هذا السلوك، مع فكرة الشعب المختار، فكل من ليس من هذا الشعب عدو له ينبغي إزالته من الوجود.

سرعان ما ستظهر، ولكن مفهوم تلك الرسالة لم تبعد المفاهيم التوراتية والتنبؤات الموجودة في العهد القديم، وإن الافتقار إلى التنظيم الذي ميز المسيحية الأولى في فلسطين، ما هو إلا انعكاس للرسالة الروحية للمسيح نفسه، فالأمل الذي وعد به هو أمل الفداء، أو التخليص من الخطيئة، وهذا الخلاص ليس خلاصاً دنيوياً فما هي قيمة الظلم والاحتلال الروماني عندما أصبح ظاهراً للعيان، إن العالم الدنيوي سرعان ما سينتهي أمره ويزول، لذلك فإن كل الدلائل كانت تشير إلى أن عصراً جديداً يوشك أن يطل، ولكن ليس على هذا العالم الدنيوي، ولهذا يجب أن يطمس ويمحى النظام القديم، إذا ما نشأ وتأسس المجتمع الجديد، ولاشك أننا يجب أن نتأكد أن هذه الأفكار قد تركزت في عقيدة يسوع الناصري على أساس توقعات يومية حقيقية لنهاية هذا العالم ونهاية التاريخ البشري، وأن الحياة التي عاشها يسوع المسيح، والتي اجتذبت الفقراء والمساكين والمسحوقين والذين لا أمل لهم في هذه الدنيا، كل هذا كان من الواجب أن ينتهي، فعملية الصلب بحد ذاتها إذا أخذناها من هذا المنطلق لم تعد حادثة مؤسفة أو كارثة، بل أصبحت هدفاً روحانياً من الواجب حدوثه، وفيما بعد أصبح الصلب ركن من أركان الإيمان المسيحي، ومن أركان علم اللاهوت المسيحي، فبدون الصلب تفرغ العقيدة المسيحية من محتواها الأساسي وبالطبع ليس هذا المحتوى داخلاً ضمن نظام القديس بولص الثوري، مادام أن بولص هو المؤسس الحقيقي للكنيسة المسيحية ومهندس وباني علم اللاهوت المسيحي، إن المسيحية الأولى التي علينا أن ندعوها اليسوعية من حيث إنها لا تزال مرتبطة ارتباطاً حميماً بيسوع الناصري، وليست مرتبطة بأية كنيسة أو بأية مجموعة من العقائد - إن هذه المسيحية الأولى عبارة عن دين يبشر بانتهاء هذا العالم، وفي مثل تلك الأيام القريبة من نهاية الأيام (وهذا اصطلاح توراتي) وهو ما ذكرته التوراة عن الزمن القديم، كل هذه الأمور لم يعد لها أي وزن أو أية أهمية وينعكس هذا في نصوص نصائح المسيح والوصايا التي تقول: «لقد سمعتم ما قيل في الزمن القديم: لاتزنوا، ولكن الحق أقول لكم: إنه من ينظر إلى امرأة نظرة شهوانية فقد زنى في قلبه»، وأحياناً أخرى تقول بشكل صارم شديد وغير عملي:

«وإذا خانتك عينك فأقلعها وارمها بعيداً عنك! وذلك لأنه من الأفضل أن يهلك جزء من جسمك على أن يهلك جسمك كله، ويرمى به إلى الجحيم»، وتقول مرة أخرى: «من صفعك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر، وإذا ما أخذ لك رجل معطفك فدعه يأخذ سترتك أيضاً، باركوا لاعنيكم، وأحبوا أعداءكم، لا تفكروا بالغد لأن الغد له أفكاره الخاصة به»، فهل هنالك من مجتمع في هذا العالم يا ترى يستطيع أن يتقبل هذه الأفكار ويجعلها مبادئ مقبولة للسلوك البشري؟ لكن هذا الإشكال لم يكن وارداً بالنسبة ليسوع وتلاميذه، فلم يكن تفكيرهم على مستوى المجتمع لأن المجتمع سرعان ما سوف يزول ولن يدوم هنالك أي مجتمع، فتلك الغيوم السوداء التي نراها تحيط بالصليب وبالجمجمة في صورة (الصليب) الشهيرة لآل جريكو سرعان ما سوف تغلف هذه الأرض، وسوف تتحول البشرية إلى الإيمان، وهذا هو معنى الرسالة التي أتت من تلك التلال المتماوجة حول طبرية، ومن كنيس كفرناحوم، لا بل حتى بعد وفاة المسيح كان أتباعه على تمام الإيمان أنه سوف يعود مرة ثانية لأنه قد ظهر في اليوم الثالث، فقد وجدوا القبر فارغاً والصخرة الثقيلة التي وضعت فوقه قد زالت.

في هذا الجو للوجود المسيحي اليهودي المبكر في فلسطين، حيث كان المعتقد الجديد يحمل طابع الأسرة الطائفية، وحيث كان قائد مؤسس هذه الطائفة لا يزال حياً، وحوله شهود عيان يعيشون معه، في هذا الجو وهذا المناخ لم يكن هنالك من حاجة للكنيسة أو أية منظمة رسمية فالمشاركة في الطعام، وتقسيم الخبز والثواب الإلهي للفقراء والمرضى، والمشاركة بحياة بسيطة لا تخلو من تناقضات تتجسد في الوقار الجديد يقابلها اللامبالاة والخلو من الهموم، فلقد كانت هذه المظاهر المثيرة أهم بكثير من بناء الطبقات الكهنوتية، فالصلوات كانت صلوات يهودية، والشريعة هي شريعة موسى[1]، وفي هذا الصدد يقول يسوع: «لا تظنوا أني قد أتيت لتدمير شريعة الأنبياء، بل أنا أتيت لتطبيقها وإنجاز

(1) كذا وشتان ما بين شريعة موسى، وما كان عليه يهود القرن الأول، فقد كان هنالك إجماع، بأن شريعة موسى هجرت وحرفت، لهذا وجدت الحاجة للعودة إلى المسلك القديم، ولهذه الأسباب قامت حركات مثل حركة جماعات قمران على البحر الميت والمسيحية ذاتها وسواها من الحركات.

وعودها»، وبعد وفاته لاشك أنه كان هناك أناس يتذكرون ويعرفون أن المسيح المصلوب غدا أقوى نفوذاً مما كان عليه المسيح الحي، فلقد كان المسيح الميت والذي سيبعث حياً، وليس المسيح الحي الذي أثر على (شاول) الأممي وهداه ويبدأ العصر المسيحي الجديد ببولص (وهو الاسم الذي اتخذه شاول لنفسه بعد هداه)، وهذا العصر الجديد استهل بالسيطرة على العالم اليوناني الروماني وبانضمام بولص تحررت المسيحية من الأفق الفلسطيني الضيق، ومن القيود التي وضعها المسيح ضد التبشير بين الوثنيين، فلقد كان بولص من طرسوس[1] وهي حاضرة رفيعة للثقافة الهلنستية لمنطقة كيليكية، وكان هذا الرجل ملماً بكثير من اللغات ومجيداً لها وأممياً كالمدينة نفسها، فقد درس في فلسطين تحت رعاية (الرباني حاماليل) ولكنه لم يصبح فلسطينياً في ذهنه وعقليته، بل على العكس بقي حيادياً غير متحيز إلى أية فئة، وكان متعدد النشاطات له طاقات هائلة وهذا ما يحتاج إليه في مثل هذه الأعمال، وكانت طرسوس تشبه أثينا وتعد كأنها أثينا الصغيرة، وبها جامعة ومكتبات، وفي طرسوس نزلت كليوباترة في يختها المذهب ذي المجاديف الفضية لكي تقابل أنطونيوس، وتستولي على عقله، وهي تقع جنوب غربي تركيا، وتعد بوابة آسية الصغرى، وبداية الطريق إلى الشرق الأقصى، فلم يكن من قبيل المصادفة أن بولص الذي كان يتكلم العبرية واليونانية والسريانية قد فهم فكرة المسيحية الجديدة واستوعبها، وهي التي سوف تزف عالم الطائفة اليهودية التي تزعمه المسيح إلى العالم الوثني في الإمبراطورية الرومانية، فقد أصبح أول مبشر ينقل المسيحية ويخرجها من نطاق فلسطين، إذ كادت أورشليم تزوي وتذبل بعد المصادمات العنيفة بين اليهود والجيش الروماني المحتل، وهذا ما أدى إلى تدمير المدينة نهائياً عام 70م، وهكذا أصبح من الصعب، الاحتفاظ بالكنيسة الأصلية للمسيح، حتى المسيح نفسه لم يكن ليعارض هذه الفكرة الانتقالية الجديدة، لأن عظة الموت والبعث كانت ما تزال تبشر في الكنس فقط، وفي الوقت الذي بدأ فيه بولص مهمته كان هنالك كثير من اليهود يعيشون حوالي البحر المتوسط، وكانوا

---

(1) هي الآن في تركية وقد نالت شهرة واسعة في التاريخ الإسلامي، وكانت قاعدة الثغور الشامية.

منتشرين في كل مدينة وبلدة، وهذا ما شكا منه الجغرافي (سترابون) وقد تمتعوا بحرية العبادة لكونهم مواطنين في الإمبراطورية الرومانية، وفوق ذلك فقد كانت كنسهم لا تجتذب اليهود فحسب بل اجتذبت كثيراً من اليونانيين والرومان، الذين وجدوا أن الاعتقاد بإله واحد أفضل بكثير من الوثنية، وهكذا تحولوا إلى اليهودية، ومنذ القرن الأول قبل الميلاد حصل تبادل تجاري واسع بين روما والقدس، وكذلك في العلاقات الثقافية فقد اتخذ أبناء ملوك اليهود وأفراد النبلاء روما محجاً لدراستهم ومكاناً للهوهم، وكان آخر الملوك اليهود رومانياً أكثر منه يهودياً، وكانت زوجة الإمبراطور (نيرون) يهودية متحولة، وقد دفنت طبقاً للطقوس اليهودية، وكان اكويلا Aquila الذي ترجم الكتاب المقدس إلى اليونانية وثنياً يونانياً، قبل أن يصبح يهودياً، كما كانت هنالك أيضاً جماعة (الخائفين من الرب) الذين رفضوا طقوس الختان اليهودية (وهذا واحد من الأمور التي اهتم بها بولص في كتاباته) ومع ذلك فقد كانوا يحضرون الصلوات في الكنس دون اعتناق اليهودية رسمياً، ولقد انحصر تبشير بولص بين هؤلاء الناس ذوي اللغات المتعددة، والخواص، والعناصر المتباينة، وبقي واعظاً (للخراف الضالة من بني إسرائيل) في الوقت نفسه الذي بدأ به رحلاته في أرجاء الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف وفي طريقه إلى إسبانيا التي كان فيها جماعة قديمة من اليهود، توقف بولص في روما حيث كانت هنالك مستعمرة من اليهود (الذين يعيشون جنباً إلى جنب مع السوريين وغيرهم من الأجانب) في تلك المنطقة فيما وراء نهر التيبر والتي تدعى (تراستفيري)، وفي روما نفسها التقى بأحد الحواريين الاثني عشر، ذلك الذي اصطفاه السيد المسيح وهو بطرس الذي تجسد حياته وموته حياة الكنيسة حتى يومنا هذا، وإن بطرس صياد السمك الذي امتلأت شباكه الفارغة بالسمك بقدرة قادر في معجزة (السمك) على بحيرة طبرية، ترك قواربه وشباكه وأسماكه، لا بل حتى زوجته ليصبح أبرز رجل بين الرسل، وهكذا أصبح صياد رجال.

ونأتي الآن على ذكر بطرس، فهو يعد الأسقف الأول في روما حسب قائمة البابوات الرسمية، وقد كتب عنه ما يلي في كتاب البابوات الذي دوّن في القرن الرابع:

بطرس الأنطاكي الرسول عليه السلام، رئيس الحواريين، ابن يوحنا من منطقة طبرية، من مدينة بيت صيدا، أخو أندراوس، شغل في أول حياته منصب أسقف أنطاكية لمدة سبع سنوات، دخل روما عندما كان نيرون قيصراً، وهنالك شغل منصب الأسقف مدة خمسة وعشرين عاماً وشهراً واحداً وثمانية أيام، كان أسقفاً في عصر القياصرة: تايبرياس، وجايوس، وتايبريوس، ونيرون، كتب رسالتين إنجيليتين تدعيان «كاثوليك» كما كتب إنجيل مرقس، لأن مرقس كان تلميذه وابنه بالتعميد، وتوصف نهايته بهذه الكلمات: «لقد نال تاج الشهادة مع بولص عام 38 لآلام المسيح، ودفن أيضاً في (فيلا أوريليا) في معبد أبوللو قرب المكان الذي صلب فيه إلى جانب قصر نيرون في الفاتيكان على مقربة من منطقة قوس النصر، في التاسع والعشرين من حزيران، وهكذا شيد في الفاتيكان (جبل الفاتيكان القديم) فوق ضريحي بطرس وبولس الكنيسة العظمى، ومن ثم يبدأ تاريخ البابوية، وكان بطرس يدعى شمعون وهو اسم يهودي قديم، لكن تحوله ومنصبه الجديد استدعى تسميته باسم جديد، وقد رأينا من قبل أن الطفل عندما يعمد يعطى له اسم جديد، حتى في التقاليد اليهودية يعد الاسم مقدساً، فهو يشكل ويوضح مصير الشخص واتجاهه، وهكذا أصبح يعقوب يسمى إسرائيل لأنه تصارع مع الملائكة والرجال، وأبرام أصبح أبرهام لأن حرف الهاء المضاف هو حرف مقدس إلهي، وهكذا أصبح شمعون يدعى سيفاس سفا (صفا)، وهي عبارة آرامية تعني الصخرة، وعليه ترجم اسمه إلى اللاتينية والإغريقية، باسم (بيترا) أي الصخرة، وطبقاً لإنجيل مرقس نرى أنه عندما اعترف شمعون بن يوحنا بيسوع الناصري وآمن به بأنه المسيح ابن الرب الحي، التفت إليه يسوع وقال: «إنك أنت بطرس (الصخرة) على هذه الصخرة سوف أبني كنيستي، وسوف لا تفتح عليها أو ضدها أبواب الجحيم، ولسوف أعطيك مفاتيح السموات، وكل ما تعقد في الأرض سوف يعقد في السموات، وكل ما تحله في الأرض سوف يحل في السموات».

وهكذا شيدت أسس البابوية: الصخرة، الكنيسة، مفاتيح السموات، القدرة على الحل والربط، وأما الباقي فهو عبارة عن تعليقات، وربما شروح طويلة ومثيرة، ومن المؤكد

أنها شروح لانتصارات درامية ، ولانحرافات وضلالات مأساوية ، وأعمال حرب دامية ، وحماقات بشرية ، وحكمة رقيقة ، وقوة وحشية وجمال وسحر وبهاء مع كثير من الظروف والحوادث ، تلك الشروح التي لا تزال تكتب ، إنما هي شروحات ليس إلا وذلك ، لأن وظائف البابوية ومهامها قد وضحت وجددت منذ البداية وعلى تلك الأسس بنيت أعظم مؤسسة ثابتة باقية خلال التاريخ الإنساني ، ولم يصدف أن كتب البقاء والاستمرارية لأية ملكية ، أو أية أسرة نبيلة ، أو أي نظام حكم في العالم ، كما استمرت وبقيت هذه المؤسسة ، مؤسسة وظيفة البابا ، أسقف روما .

وهنالك نقطة صغيرة تجعلنا نثير الشك حول صحة كتاب البابوات الرسمي ودقته ، عندما يسجل اسم بطرس وخلفائه المباشرين في قائمة البابوات ، فمن الطبيعي أنه خلال القرون الثلاثة الأولى كانت البابوية - إذا جاز لنا أن نطلق هذا الاصطلاح على زعامة الكنيسة المسيحية في ذلك الزمن - تختلف عما أصبحت عليه في القرنين الرابع والخامس ، وعلى أية حال ، فالطائفة المسيحية الأولى كانت في أول الأمر عبارة عن طائفة يهودية مسيحية بجميع أفرادها تقريباً ، ثم أصبحت بعد ذلك تتألف من المتحولين الوثنيين إلى المسيحية ، ولم تكن هذه الطائفة سوى طائفة غير شرعية ، عاش أفرادها وعملوا ومارسوا طقوسهم الدينية في الخفاء ، وتحت الأرض ، فلم يكونوا كاليهود الذين عاشوا قروناً طويلة في الإمبراطورية الرومانية ، فأصبحوا يتمتعون بالحريات الممنوحة لدين معترف به رسمياً ، على الرغم من أنهم لم يشتركوا بالمعتقدات الرومانية الوثنية التي كانت تعد القيصر إلهاً ، ولقد لخص القيصر كاليجولا ، وهو الإمبراطور الغريب الأطوار والكثير النزوات موقف الدولة الرسمي تجاه اليهود ، عندما سمح للوفد الشهير من يهود الإسكندرية الذي كان يرأسه الفيلسوف فيلو ، بمقابلته ، فقد أظهر هذا الإمبراطور الاحتقار الصريح لذلك الشعب الذي وصفه بأنه لم يكن شيئاً بقدر ما هو فاقد العقل ، وذلك لأنه لا يعلم أني أنا كاليجولا رباً ، ومع ذلك فقد تمتع اليهود بحرية العبادة والمواطنة الرومانية الكاملة ، حتى بولص استطاع أن ينجو ويحصل على حريته بعدما اعتقلته السلطات الرومانية ، وذلك بادعائه أنه

يهودي، وكونه بالتالي مواطناً، أما أفراد الطائفة المسيحية فلم يتمتعوا بهذه الصفة، لذلك كانوا يقضون أوقات العبادة في السراديب والمقابر تحت الأرض، فبدلاً من أن تحميهم السلطات والدولة، كانوا يشعرون أنهم مهددون دوماً، وتحت طائلة الموت، لهذا لم يكن زعم مثل هذه المجموعات يحوز على ذلك السحر والبهاء الذي تمتع به البابوات المتأخرون، فكان يشبه نزيلاً موقراً في سجن، وهكذا عندما نذكر أن بطرس كان أول بابا، أو بالحري أول بابا يهودي فلا يعني ذلك أن هذا اللقب كان له تلك الأبهة والعظمة التي اتسمت بها البابوية في المستقبل، عندما تحسن وضع البابوية وأصبحت في موقع القوة والعظمة.

ويدعى بطرس، البابا الأول لأنه كان أول رئيس لكنيسة روما وبالطبع هنالك كنائس أخرى في الإمبراطورية الرومانية، في أزمير وإفسوس في آسيا الصغرى مثلاً، وفي أنطاكية في سورية، وفي الإسكندرية في مصر (أما القدس فقد أصبحت غير ذات أهمية كما رأينا من قبل).

وفي أيام قسطنطين الكبير وهو أول إمبراطور مسيحي أصبحت القسطنطينية وهي روما الجديدة أداة تهديد لسيادة روما، ولكن روما بقيت صامدة ولم تستسلم، وقد كان هذا الموقف عاملاً له أهميته، فقد وجد أساقفة كثيرون ورؤساء أساقفة عند الجماعات المتزايدة العدد، وفي الكنائس المسيحية، إلا أن أسقف روما ظل أسقف الأساقفة، فقد كان هو البابا، وهذا أمر لا يخلو من الغرابة، لكنه ليس غير عادي عند النظر إلى تطور المذاهب والأديان، والأسباب ليست مجرد أسباب تاريخية أو جغرافية، مع اعترافنا بأهميتها، إن السبب الرئيس الذي جعل كنيسة روما هي الكنيسة الموثوقة والمعتمد عليها، يرسو في حقيقة أن مؤسسي هذه الكنيسة هما بطرس وبولص، وبصورة خاصة بطرس الذي وصل إلى روما قبل بولص، وهو الصخرة التي اختارها المسيح بنفسه لتبنى عليها الكنيسة، وبهذا التعيين أصبح بطرس هو الكنيسة، هكذا نشأ ذلك التقليد الرسولي الذي يعطي كامل الثقة بكنيسة روما، ويجعل أسقفها في مرتبة الزعيم الشرعي للكنيسة وليس مستشار الكنيسة فحسب، وقد احتفظت روما بهذه الصفة ليس بسبب الإصرار والتمسك بالعقائد المتصلة

بالمشاكل اللاهوتية، التي طالما سببت انقسام الكنيسة، في ذلك النزاع الطويل الأمد حول طبيعة الألوهية والصفات الشخصية لروح القدس، ولكن أيضاً بخصوص أعمال ذات طبيعة[1] أممية (كاثوليكية) هذه الأعمال التي أصبحت مختصة بالكرسي الأسقفي في روما، ولم تعد للكنيسة أي علاقة بها ككل، وبين هذه المسائل العملية التي نوهنا عنها: إعتاق العبيد المسيحيين، وإطلاق سراح الأسرى، وهدايا المحسنين للكنائس المنكوبة، والنشاطات الأخرى التي لم تراع المسافات والفروق العرقية، وهكذا فقد أوكلت جميع هذه المسؤوليات إلى أسقف روما، ابتداء من أقدم الأزمنة التي بدأت بها تطورات البابوية.

وإن وضع روما كعاصمة للإمبراطورية الرومانية قد كان له أثره في تفوق هذه المدينة، التي أصبحت أكبر وأشهر وألمع مدينة في العالم، والحقيقة أن هذه المنزلة والصفات كانت أكثر خطراً منها منفعة بالنسبة للمسيحيين الأولين، لقد عاش هؤلاء تحت سيطرة البلاط الإمبراطوري، ولهذا فقد كان وجودهم مهدداً دوماً بالحرمان والسجن، والتمييز، وغالباً الموت صلباً، وبينما كانت هذه الأخطار والسرية التي أحيطت بها المسيحية في أول عهدها عبارة عن دوافع جاذبة للألوف من الناس رجالاً ونساء، ومع هذا لم يكن من السهل أن يكون الإنسان جزءاً من أخوة تعيش تحت الأرض، لا تستطيع أن تصرح بأسماء أعضائها، وهي معرضة دوماً للخيانة والابتزاز، ومضطرة لدفن الموالين لها ونصرائها في السراديب تحت الأرض، ولكن بعد أن تبنى قسطنطين[2] تلك الديانة المسيحية التي كانت

---

(1) كانت المسيحية في تاريخ الديانات ـ أول ديانة حاولت أن تقدم شريعة أممية، وقد ساعد الكاثوليكية على الوصول إلى هذا التصور، كونها ورثت تراث الإمبراطورية الرومانية، وأرادت أن تكون روما مدينة الله بدلاً من مدينة الشيطان حسب قول القديس أوغسطين، والمعوق الأساسي الذي حال بين الكنيسة وتحقيق الوصول إلى الفكرة الأممية هو الإخفاق في تحقيق فكرة الوحدانية، والبقاء في حلبة التثليث، مما سبب الصراعات المستمرة، وحوّل الديانة المسيحية من ديانة إلى ديانات.

(2) في سنة 313م أصدر قسطنطين الكبير مرسوم ميلانو الشهير معطياً المسيحية حرية المعتقد، وبعد هذا زاد من تحالفه مع هذه الديانة، وتحوم الشكوك حول اعتناق هذا الإمبراطور للمسيحية على الرغم من كل ما بذله يوسبيوس مؤرخ الكنيسة الأول لتأكيد ذلك، إن مسألة إعلان مرسوم ميلانو ومراعاة قسطنطين لهذه الديانة محور أبحاث مستفيضة في تاريخ أوروبا في أوائل العصور الوسطى.

مكروهة ومحتقرة، وأعلنها ديناً رسمياً للدولة، وقفت كنيسة روما وقفة واضحة في كنف تلك الأشعة الباهرة الخيرة، التي سطعت من لدن عرش الإمبراطور، ولقد تمتعت الكنيسة بوضع خاص من البهاء والاعتراف، بعد أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية التي يتزعمها الإمبراطور القائد الزمني، ولهذا أصبحت كنيسة روما بشكل طبيعي زعيمة الكنائس وذلك بسبب التقاليد الرسولية التي أمنت لها الثقة، وأمنت استمرار سلطتها الروحية فضلاً عن مركزها الجغرافي والسياسي كعاصمة، وهكذا أصبح أسقف روما زعيم الاكليروس في جميع أنحاء العالم، ولم تستطع القسطنطينية ولا ميلانو أو رافنا في الأزمنة الأخيرة، أن تحتفظ بأكثر من صفتها منافسات مؤقتة لروما ما لبثت أن زالت بمرور الزمن.

وفي حوالي نهاية القرن الأول تبين أنه لم تقم القيامة، ولم ينته العالم بعد، والحقيقة أنه لم يحدث أي حادث فريد من أي نوع يشهد على صحة رسالة المسيح، حقاً لقد ظهر دين جديد إلى هذا الوجود، وهاهي الكنائس تبنى وأقوال المسيح قد كتبت وفسرت على يد الآباء الأولين، ولكن هذه الكنيسة لا تشبه إلا لماماً ذلك الطيف السماوي الذي يدعي ملكوت الرب، الذي حلم به يسوع، وأصبح من الواضح أيضاً أن ليس هنالك من أحد في الكنيسة يستطيع أن يجاري تلك الآمال التي احتوتها عظة الجبل، تلك الرسالة الفصيحة التي عبرت عن أزمة الجنس البشري المسببة عن توقع النهاية، ولكن النهاية لم تأت، فها هو العالم لا يزال كما هو عالم قديم، عجوز، بكل ما فيه من حاجيات قديمة من يأس، وإحباط وأمل، وهذه كلها أمور دنيوية لا علاقة لها بالآخرة، إنما جميعها ضرورية لتلبية حاجات الدين الجديد، ولاشك أن هذا استلزم وجود التنظيم.

لقد بدا أن التنظيم غير ضروري بل في غير محله في أوائل تاريخ الكنيسة، فالمجتمعات المسيحية كانت في ذلك الوقت صغيرة جداً، والروابط التي ربطت أفرادها ببعضهم البعض كانت روابط حميمة وطبيعية في حد ذاتها، فإذا فرض و أحدث تنظيم رسمي فهذا كان يسبب نتائج سلبية ربما أطاحت بتلك الروابط التي جمعت بين أولئك

الأفراد، من معتقدات راسخة، ومخاوف وآلام وآمال، حتى في القرن الثاني نجد أن أغناطيوس الأسقف الثاني للكنيسة السريانية في أنطاكية استطاع أن يكتب إلى زميله في أزمير: «لقد قربت الساعة والقيامة ونهاية هذا الكون، ولهذا دعونا نقف بذل وخشوع أمام حلم وأناة الرب، لئلا تظهر إدانتنا، ولهذا دعونا إما أن نذوب فرقاً من الغضب الإلهي القادم، أو أن نشكر الرب على النعمة التي نحن فيها ـ هذا أو ذاك»، ولقد كان الزعماء الأوائل للكنيسة رجالاً موهوبين، ولم يكونوا مجرد موظفين منتخبين، فقد حكموا، ولكن بالمحبة والإحسان، دون أن يكونوا بيروقراطيين، وبالإيمان دون أن يلهثوا وراء الأصوات الانتخابية، ومع أنهم كانوا يدعون أنفسهم أساقفة حتى في تلك الأيام المبكرة، إلا أنه لم يكن هنالك مراتب كهنوت، فكان الأسقف من أقرب الناس إلى الشعب، فالزمان الذي أتى على رجال الاكليروس، حين صاروا يجلسون على عروش عظيمة فخمة في أقبية الكاتدرائيات القوطية بعيد جداً عن جماعة المصلين، الذين كانوا يركعون أمام الأساقفة في الفضاء الرحب أمامهم، لقد بدأت في روما تلك التنظيمات الكنسية التي تطورت عبر القرون، ولاشك أنها قد تأثرت في تفاصيلها بالبنية السياسية للإمبراطور فالتمييز الذي وضح في الفترة ما بين العهدين القديم والجديد التوراتي، فيما بين الكهنة اليهود واللاويين، لاشك أن له أثراً قديماً يدخل في هذا المضمار، ولكن سرعان ما استأصلت هذه الأفكار لتحل محلها التجارب اليومية الملحة المستقاة من الحياة اليومية الرومانية المدنية، فالتعاليم الأولى للرسل الاثني عشر كانت هي المرشد المعول عليه في الأيام الأولى، وتقول هذه التعاليم: «لذلك عيِّنوا لأنفسكم أساقفة وشمامسة أكفاء أمام الرب، رجالاً معتدلين حليمين، لا يسعون وراء المال، صادقين محبوبين ينجزون لكم ومن خلالكم أعمال الرسل والمعلمين، لهذا عليكم ألا تحتقروهم، لأنهم رجال شرفاء مرتبتهم في مصاف الرسل والمعلمين».

طبعاً إن مجرد وجود هذه العظة وهذا التحذير والنصح ما هو إلا برهان وإثبات أن الأساقفة لم يكونوا قد كونوا لأنفسهم مؤسسة رسمية قائمة بذاتها، فالكنيسة الأولى كانت

لا تزال هيئة ديمقراطية فضفاضة، ومؤسسة، شعبية ولكونها كذلك فقد تعرضت للسقطات التي تتعرض لها أية مؤسسة شعبية، وقد كانت زعاماتها من الرسل والمبشرين بالإنجيل يتصرفون بشكل عفوي، بناء على اجتهادات شخصية، الأمر الذي أوصلهم أخيراً إلى تلك النتيجة المحتومة، وهي تفشي الفوضى في الطقوس الدينية والمذاهب والتفاسير ولو استمر الحال على هذا المنوال لوصلت الكنيسة حتماً إلى حالة عنقودية من المِلل والنحل غير المنظمة، والتي لا تخلو من العواطف والانفعالات فضلاً عن المفاسد، وهكذا أصبح التنظيم ضرورياً، وبمرور الزمن حل نظام ملكي محل الديمقراطية الآنفة الذكر، وطبقاً للنظام الجديد أصبحت كل أبرشية أو طائفة تنتخب رجلاً بناء على أكثرية في التصويت ويدعى ايبيسكوبس أي الأسقف، وبعد الانتخاب كان هذا الأسقف يسام أسقفاً على يد ثلاثة أساقفة من كنائس مجاورة، وكانوا يضعون أيديهم على رأس الأسقف المنتخب وهي الطقوس اليهودية نفسها لسيامة الربانيين وتثبيتهم رسمياً، ولم يكن هنالك أية تدريبات أو أي تثقيف لاهوتي لهؤلاء الأساقفة، فالرجل الذي كان ينصب أسقفاً افترض أن يكون حسن الاطلاع، ذكياً لبيباً نقياً في أخلاقه واقفاً نفسه على العقيدة، ويكون عادة متزوجاً وكان هذا الشرط الأخير يؤلف مشكلة، وذلك لأن خدمة المذبح تعد حسب الاصطلاحات التوراتية أمراً يقتضي التضحية، والامتناع عن ممارسة الجنس، فالزواج بالنسبة للمسيحيين الأوائل كان يعد واسطة للإرضاء الجنسي، أكثر من أي شيء آخر، وشراً لا بد منه، هذا وقد حدث أن نذر كثير من العلمانيين أنفسهم للامتناع عن أي اتصال جنسي، أو على الأقل التقليل منه، ولهذا كان من المستحيل أن يصبح الأسقف أسقفاً وهو أقل ورعاً من هؤلاء الأتقياء من رعيته، ولهذا كان من المتوقع أن يبدو معتدلاً على الأقل أثناء مدة خدمته الكهنوتية على المذبح، وإذا حدث ولم يكن متزوجاً حين انتخابه كان من الأفضل أن يظل عازباً، وهنا بدأت جذور مبدأ العزوبية عند الرهبان، التي سوف يكون لها دور هام في القرون القادمة، كجزء من نهج التقشف الاكليروسي الذي سوف يظهر في كنف إخوانيات الرهبنات الدينية في المستقبل.

ولقد كانت أشكال الوظائف الكهنوتية خصوصاً في روما، تقليداً للخدمات المدنية الرومانية، فقد كان الأسقف يحيط نفسه ببطانة من القساوسة والشمامسة، والخوارنة وجميع الرتب الاكليروسية الدنيا، وكانت هذه الوظائف تبدأ بالقندلفت، فالمراسل ثم قارئ الكتاب المقدس، الذي تطورت أعماله فأصبح يقوم بوظيفة المبشر، وكانت هنالك إمكانات للترقية في الوظيفة الاكليروسية، فالقندلفت، والقارئ تهيأت أمامهما فرص الوصول إلى مرتبة الشماس، في يوم من الأيام، أو أن يصبح الواحد منهما قسيساً أو حتى أسقفاً، وبما أنه لم يكن هنالك تدريب لاهوتي، لذلك انحصر نشاطهم في المهارات الإدارية، وبالإخلاص والتفاني للمبدأ الذي كرسوا أنفسهم لخدمته بجدارة، وتربع فوق قمة هذه البنية الكنسية أسقف روما، ومع أن عدد الأساقفة في آسيا وأفريقيا كان أكثر من عددهم في روما، مما سبب بعض أعال التذمر والمعارضة، حتى في هذه المرحلة المبكرة (كما حدث فيما بعد في القرون الوسطى) إلا أن الاعتراف بوضع أسقف روما الممتاز، كان مدهشاً في توقيته المبكر، ويجب أن نضيف أن هذه الاعترافات لم تضف أي صفة تشريعية، يتمتع بها أسقف روما فوق رجال الاكليروس المحليين، فهؤلاء كانوا تحت سيطرة أساقفتهم الموكلين بهم، ولكن كان يكفي إنما ليس أقل من ذلك، لا بل حتى قبل استعمال لقب (بابا ـ وهو مشتق من كلمة بابا اللاتينية، ومعناها الأب) كان هنالك بعض الوظائف التي لم يكن لها علاقة بالشؤون الإدارية أصبحت مقبولة كامتيازات خاصة بروما ومقصورة عليها فقط، امتيازات هي التي ستوصل بعد قرون عام (1807م) إلى الاعتقاد بعصمة البابا، ولقد اتفق الأساقفة (اتفاقاً ضمنياً، وليس بشكل رسمي) أن تحديد المذهب الكنسي لا يجوز أن يتم إلا عن طريق البابا فقط.

والحقيقة أن أهمية هذه السلطة لا يستطيع شعب القرن الحادي والعشرين أن يستسيغها بسهولة، وذلك لعدم اهتمام هذا الشعب بالشؤون الإدارية في الوقت الحاضر، ولكن شعوب القرون الوسطى كانوا يتقاتلون قتالاً مريراً حول تفسير واحد بسيط للعقائد الدينية، وأحياناً حول كلمة واحدة، وقد نشبت حروب كثيرة بسبب الاختلافات الدينية

الأمر الذي سبب موت الكثيرين، وأدى إلى تشتت العديد من الأسر عدا عن ظهور اختلافات دينية جديدة وفرق وطوائف لم تكن موجودة، وهكذا غدت وحدة الكنيسة وظلت مهددة منذ القرون الأولى لإنشائها، لا بل حتى ما بعد عصر الإصلاح الديني، إلا أن حق تقرير من هو صاحب السلطة العليا، وما هو المذهب الوحيد المقبول، لم يكن امتيازاً بابوياً فحسب بل كان بداية صعود نجم البابا، وازدياد سلطته.

أما الامتياز الثاني الذي تمتع به البابا في روما فهو قدرته على حرمان أي أسقف وطرده من الحظيرة الكنسية، وخصوصاً أولئك الذين كانوا لا يتفقون معه في أحكامه البابوية أو في المسلمات الدينية، وكان هذا توسعاً منطقياً في سلطة البابا كحاكم مطلق، في شؤون العقيدة المسيحية، فما دام أن البابا قد خطط الخطوط الرئيسة للعقيدة، وقرر أن تكون هذه الخطوط هي المعتقد المقبول الوحيد، عندها أصبح من الواجب إزاحة كل أسقف يرفض أن يعترف بهذا الوضع، وكانت هذه الإزاحة تتم أحياناً دون لباقة، واستعملت أحياناً لغة تخلو من الأدب أو التهذيب، فنحن نقرأ في رسالة أرسلها بابا دامسكوس (دمشق) الأول (366 ـ 384م) إلى الأساقفة الشرقيين الذين ثاروا باستمرار على السلطة المخولة لبابا روما، والذين انفصلت كنائسهم نهائياً فيما بعد عن روما، كتب إليهم ما يلي: «فليكن معلوماً لديكم جميعاً أننا منذ زمن قد حكمنا بإدانة المدعو (تيموثي) التلميذ المنحط لأبوليناريوس Apollenarius الهرطقي المنشق في عقيدته الملعونة، ونحن نعتقد أن كل ما بقي منه لا يستحق أي اعتبار من أي نوع كان، من الآن فصاعداً، ولكن إذا أراد ذلك الثعبان العجوز الذي يستحق الضرب مراراً وتكراراً، أن يجدد إساءاته ويستمر في السعي للاتصال بالكفرة ونفث سمومه فعليكم أن تتجنبوه كما تتجنبون أي وباء، وألا تسمحوا لرجال الدين عندكم ولا للعلمانيين أن يصغوا لأقواله، ولا لتأملاته السخيفة، فهنا وبناء على قرار الكرسي الرسولي وبحضور بطرس أسقف مدينة الإسكندرية تقرر الحكم على هذا الرجل بالإدانة، هو وأستاذه أبوليناريوس، الذي سوف يتحمل ما يستحق من العقاب والعذاب، يوم القيامة، ولكن إذا استمر يعمل مثل إنسان فيه

أمل حيث يضل بعض الأشخاص غير المتزنين فإنه بهذه الأعمال لا يدمر عقيدته فحسب بل يدمر كل أمل له بالمسيح، وآنئذ يهلك معه كما هلك كل من تسول له نفسه أن يقاوم أحكام الكنيسة، ليحفظكم الرب أبنائي المبجلين».

ويلاحظ أن هذه الرسالة تحتوي على تلك اللعنة، وهي السلاح الرهيب الخطر الذي كان بيد البابا، وهو سلاح الحرمان، ومع أن هذا السلاح كان يستعمل ضد الأساقفة في أيام دامسكوس إلا أنه أصبح يستعمل فيما بعد ضد الأمراء والأباطرة، لا بل حتى ضد أدعياء البابوية، ولم يكن هنالك أي سلاح مرهوب الجانب، أمضى وأشد وقعاً من هذا السلاح، وذلك لأنه كان يبعد ضحيته ليس عن الكنيسة فحسب، بل عن الحياة الاجتماعية برمتها.

إن سلطة البابا التي كانت ستقوم بدور عظيم في شؤون السياسة العالمية، وخصوصاً في أيام النزاع حول السلطة البابوية أثناء العصور الوسطى، هذه السلطة قد منيت بالتعتيم والإقلال من شأنها على يد الأباطرة الرومان، ولم يبدأ فصل جديد من العلاقات بين الكنيسة والدولة إلا في مستهل القرن الرابع الميلادي.

واعتنق الإمبراطور الروماني فلافيوس فاليروس قسطنطينوس الديانة المسيحية بعد معركة دارت رحاها على جسر ملافيان عام 312م، وبعد عام فقط صدر مرسوم ميلانو الذي أرجعت بموجبه جميع أراضي الكنيسة وأملاكها المصادرة، وأعلنت الحرية لجميع الأديان بما فيها الديانة المسيحية المضطهدة، ولم يثبت لدينا بالضبط فيما إذا كان قسطنطين نفسه قد تحول إلى الديانة المسيحية، فهو قد أجل تعميده حتى بضعة أشهر قبل وفاته عام 377م، ولا يعلم فيما إذا كان قد تخلى عن معتقداته القديمة أثناء حياته، أو فيما إذا كان قد فهم العقيدة المسيحية نفسها، فلقد كانت دوافعه على الأغلب دوافع سياسية، وذلك لأنه قد ثبت أن الديانة الوثنية لم تعد قادرة على توحيد شعوب الإمبراطورية المختلفة، بينما شقت المسيحية لنفسها في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي طريقاً واسعاً خلال الجماهير العريضة، وبدأ واضحاً أن هذه الديانة تمتلك العناصر الموحدة التي من الممكن أن تشمل العالم الروماني بأكمله في الشرق والغرب بما فيه أوروبا وآسيا وأفريقيا، وقد كانت أمنية قسطنطين أن يوحد الشرق

والغرب تحت حكمه في إمبراطورية واحدة، وإمبراطور واحد، وكنيسة رسمية واحدة، إلا أن المسيحية لم تصبح في الحال الدين الرسمي للدولة، إنما نصب تمثال في إحدى ساحات روما العظيمة يظهر الإمبراطور وهو يحمل الشعارات المسيحية وهذا الأمر كان كافياً وجيداً، وهو لم يجعل الديانة المسيحية مقبولة فحسب بل أصبح مؤشراً على كونها قد أصبحت هي الطراز الدارج والسائد في ذلك الزمان، ثم أخذ قسطنطين وزوجته (فوستا) يغدقان الهدايا والهبات السخية على الكنيسة الرومانية، وقد سجل سلفستر الأول، وكان هذا أسقف روما (314 ـ 335م) جميع الهبات النقدية والأعمال الفنية، والأملاك في جميع أجزاء الإمبراطورية، (وكانت هذه الهبات أساس ممتلكات الكنيسة، وهي أكبر ممتلكات تخص أية مجموعة منظمة في العالم)، وقد اشتملت هذه الهدايا والهبات على الذهب والفضة، والشمعدانات والثريات والجرار الفخارية والخزفية، والكؤوس والأقداح، والتماثيل، وكل ما يمكن أن يتصوره العقل من أعمال فنية أخرى، وبين قائمة الممتلكات (التي كان ريعها حسب تقديرات سلفستر يقدر بثروات طائلة) نجد قصر لا تيراني على تلة جوبليان، وهو الذي قد أصبح فيما بعد مركز إقامة البابا الرسمي، والكنيسة التي بنيت بجانبه هي كاتدرائية لاتيران الأصلية، ويضيف سلفستر قوله: «في الوقت نفسه بنى قسطنطين الموقر بازيليكا بطرس الرسول عليه السلام في مكان مقبرة أبولو، ووضع هناك تابوتاً به جثمان بطرس المقدس»، وبذلك أصبحت المسيحية ديانة متكاملة، معترف بها رسمياً وتتمتع بالحماية الرسمية وأصبح أساقفة روما بابوات كنيسة لها الصفة العالمية في التوزيع الجغرافي والعقائدي، بحيث استحقت اسم كاثوليك.

لو كان بطرس جاليلي ـ وهو الذي شيدت فوق ضريحه البازليكا ـ حياً لأستغلق عليه فهم هذه التغييرات الجذرية، ففي طرفة عين أصبح أسقف روما مديراً للأعمال والأملاك والثروات والأراضي التي تبلغ في حجمها حداً يتوجب عليه أن يقضي معظم أوقاته في إدارة هذه الشؤون: الدنيوية، والإدارية، والسياسية، والعسكرية، وهنا بدأت مشاكل البابوية التي تفاقمت في المستقبل، عندما تغلبت الشؤون الدنيوية والإدارية والسياسية

والعسكرية على الشؤون الروحانية واللاهوتية ، وأصبحت الكنيسة تقترب رويداً رويداً من ذلك الوقت الذي وجب عليها به أن تصبح مديرية أعمال وأشغال بحتة ، وهكذا لم يعد يخطر على بال أحد ، تلك الأيام التي قام بها يسوع الناصري بطرد المرابين اليهود من الهيكل في القدس ، ولم يعد أحد يذكر أن يسوع الناصري لم يكن ليحلم بالأملاك ، ولا بأن تكون للكنيسة أملاك شاسعة كهذه .

وعلى الرغم من الثروة الجديدة التي اكتسبتها الكنيسة ، وعلى الرغم من نيلها الاعتراف الرسمي إلا أنها كانت تعاني من مشاكل داخلية سببت لها التمزق الفعلي ، بما حدث من جدل حول عقائد الدين القويم ، وكان قسطنطين يعد هذه الاختلافات سواء بين الشرق والغرب ، أو بين المدارس المختلفة ، تهديداً أساسياً لوحدة الإمبراطورية ، وهكذا أصبحت الدوافع نفسها التي جعلته يتقبل الديانة المسيحية يتخذ الآن دوراً فعالاً جديداً في التدخل في الشؤون الكنسية وهو دور الوسيط الرئيس هذا ، ويبدو أن البابا سلفستر الثاني كان رجلاً ضئيل النفوذ على الرغم من مركزه كأسقف روما ، وأنه قنع بالثروات الطائلة الجديدة والوضع الجديد الذي جعل الكرسي البابوي أغنى مؤسسة في جميع أنحاء العالم المسيحي ، ولهذا قام بدور تافه في تسوية المشاكل اللاهوتية الملحة التي حدثت في زمنه ، بينما تصرف قسطنطين وعمل ، كما لو أنه هو البابا ، ولكي يسوي مشكلة الدوناتوسية وهي إحدى الطوائف المنشقة[1] التي ظهرت في إفريقية ، دعا إلى مجمع للأساقفة عقد في

(1) كما نافست قرطاج روما الوثنية على زعامة عالم البحر المتوسط ، سعت قرطاج المسيحية إلى منافسة روما المسيحية وقامت في قرطاج والشمال الإفريقي محاولات استقلالية ، دعيت بحركات المرتدين ، واتهمت بالكفر والخروج على المسيحية ، وكان السبب المباشر لقيام حركة الدوناتوسيين ، أنه عندما مات منسوريوس أسقف قرطاج انتخب كاسيليانوس كبير الشمامسة ليخلفه ، وسيم من قبل ثلاثة قساوسة كانوا لا يتمتعون بتقدير عام ، وهنا احتج أهالي نوميديا ـ في جزائر اليوم ـ وترأس جاثليق نوميديا مجمعاً عقد في قرطاج تقرر أثناءه ، إلغاء انتخاب كاسيليانوس وسيامته ، ورفض هذا التنازل عن منصبه ، فالتف خصومه حول زعيم هو دوناتوس الأكبر ، وهكذا نشأت نحلة الدوناتوسيين التي سرعان ما كثر أتباعها ، وأيد قسطنطين الكبير كاسيليانوس ، وأعلن أن الدوناتوسيين قوم خارجون على القانون ، وصدرت الأوامر بطردهم من الكنيسة بالقوة المسلحة ، وقد استمرت ملاحقة أتباع هذه النحلة خمس سنوات متواصلة حتى مل قسطنطين نفسه ، ودعا الكنيسة الرسمية إلى الاعتدال . انظر تاريخ إفريقيا الشمالية لشارل أندريه جوليان ترجمة عربية ط . تونس 1969 ، 1/ 259 ـ 299 .

أرليس عام 314م احتوى على جماعات لها وزنها من إسبانيا ودالماشيا، وإيطاليا، وغاليه (فرنسا) وأفريقيا (هذا أول مجمع تبعه مجامع قامت بأدوار هامة في تاريخ الكنيسة) ومع أن الأساقفة كانوا يديرون دفة هذا المجمع، إلا أن الإمبراطور كان هو الشخصية الوحيدة التي بيدها الحل والربط وقد ظهرت سيطرته أيضاً في اجتماع كنسي تال عقد عام 325م[1] في نيقيه التي هي الآن قرية مغمورة من قرى تركيا.

لقد تقرر في مجمع نيقيه - وهو أول مجمع مسكوني - مستقبل الكنيسة لعدة قرون تالية، وظهر الإمبراطور في المؤتمر وعليه رداء أرجواني جميل، وخاطب الأساقفة باللغة اللاتينية، وقد تصرف كما لو أنه أسقف عام منصَّب من قبل الرب ويقول المؤرخ: يوسيبيوس[2]: إن قسطنطين كان له أسبابه الخاصة عندما بدرت منه ملاحظة وجهها إلى جماعة من الأساقفة، الذين تحدث معهم وأنا أسمعه يقول: «إنكم أنتم أساقفة تحكمون ضمن الكنيسة، أما أنا فأسقف نصبني الرب لأشرف على جميع شؤون الكنيسة الخارجية»، ولم يكن الانقسام الذي حدث فيما بين أتباع الإمبراطور وحزب البابا، حول صلاحيات كل منهما، له شأن يذكر زمن قسطنطين، لكن بعد حوالي مئة وخمسين عاماً ظهر جيلاسيوس الأول (492 - 496م)، وهو بابا كان أقوى مراساً من سلفستر، وقد كتب هذا البابا إلى أناستاسيوس إمبراطور الإمبراطورية الشرقية (بيزنطة)، يقول: «هنالك قوتان رئيستان تحكمان في هذا العالم، هما سلطة الأحبار المقدسة، والسلطة الملكية، وفي هذا المقام إن أهمية الكهنة أعظم بكثير من أهمية الملوك، إذ أن عليهم (أي الكهنة) أن يعطوا

(1) عقد لفض الخلاف الذي تفجر في الإسكندرية بين إثنين من علماء المسيحية في الإسكندرية وهما أثناسيوس، وآريوس، وذلك حول طبيعة العلاقة بين الأقانيم الثلاثة: الآب - الابن - روح القدس، وطبيعة السيدة العذراء، وقام الخلاف بينهما أولاً حينما أعلن آريوس أن العقل والمنطق يحتمان وجود الآب قبل الابن، والمسيح الابن المخلوق للأب، فهو على هذا أدنى منزلة، ولا يمكن أن يساويه في المكانة والقدرة، ثم أوضح أن المسيح مخلوق لإله عظيم وحيد متفرد وأن عدم القول بهذا يعني أن المسيحيين لا يؤمنون بعقيدة التوحيد، ويعبدون أكثر من إله، ورد عليه أثناسيوس بقوله: إن فكرة الثالوث المقدس تقتضي أن يكون الابن مساوياً للآب ومن العنصر نفسه تماماً، ودونما خلاف في القدرة والمكانة كل هذا على الرغم من تميزهما عن بعضهما.

(2) مؤرخ من قيسارية فلسطين، عاصر قسطنطين والتحق ببلاطه، كتب حول حياة قسطنطين الكبير، وأرخ للكنيسة، فكان مؤرخها الأول، كتابه مترجم إلى الإنكليزية وربما إلى سواها، وله أيضاً ترجمة عربية.

حساباً عن أعمال الملوك يوم القيامة و«يـوم الدينونـة» ، وبعـد زمـن لـم يعـد الأبـاطرة حتـى راضين عن هذا التعريـف ، فـأصبحوا يتحدثـون عـن دكتاتوريـة البابـا التـي تعـدت الشـؤون الروحانية إلـى الشـؤون الدنيويـة ، والقـول : إن البابـا يخضـع لسلطة الـرب فقـط ، ومـادام كذلك لا يجوز أن يحاكم بوساطة أي محاكم دنيوية ، ومع هـذا نجـد حتـى ذلـك الزمـن لـم يحدث الصدام ، بل كان دور الإمبراطور لا يزال مقبولاً عن طيبة خاطر وامتنان .

إنه لم يكن أمراً ذا بال أن يدعو قسطنطين لاجتماع مجمع نيقيه ، وهـو لا يـزال غير معمد ، ذلك أن الأساقفة قد دعوا حينها لمعالجة مشاكل كان لها أثرها الفعـال علـى مستقبل الكنيسة ، فالمشكلة الرئيسة التي عرضت أمام المجمع كانت مشكلة الثـالوث المقـدس ، وهـي قضية أنهكت الكنيسة وظلت شـغلها الشـاغل لمدة طويلـة مـن الزمـن فـي المسـتقبل ، وكـان (آريوس) وهو رجل واسع الثقافة ومبشر له شعبيته في الإسكندرية ، قد أثار هذه المشـكلة ، مؤكـداً أن الشـخص الثـاني فـي الثـالوث المقـدس وهـو المسـيح لا يجـوز أن يمتلـك صفـات الألوهية نفسها كالرب الذي هو الآب ، أما المسيح فهو الابن الذي خلقه الرب ، ولـهذا فـهو أدنى منزلة من الخالق ، عندها حدثت أزمة حادة هددت بإزالة وحدة الكنيسة ، وربما القضاء على المسيحية بأسرها ، فكان هذا كله سببه تعـاليم آريـوس التـي سـميت بالآريوسية لذلـك عمـد جماعـة مـن الأسـاقفة وعددهـم حوالـي / 300/ أسـقف إلـى الاجتمـاع فـي نيقيـه ، فبعضهم حضر بوسائل النقل العادية ، وبعضهم نقلتهم خيول البريد ، ولـم يكن هنـاك سوى ستة أساقفة يمثلون الغرب ، أما أسـقف رومـا فلـم يحضـر ذلـك المجمـع ، وقـد انتهى المجمع بالتشهير بآريوس ، وأتباعه وعدهم هراقطة كفرة ، وهكذا احتفظوا بوحدة الكنيسة ، وتبنـى القانون بالإيمان المسيحي الذي صدر عن مجمع نيقيه ، وبعد أن حدثت به بعض التعديـلات البسيطة أصبح ولا يزال العقيدة الأساسية للكنيسة ، ومن ثم صار على كـل مؤمـن مسيحي أن يعترف بالكنيسة الكاثوليكية الرسولية ، ولكن الآريوسية والثالوث المقدس لـم تكـن هـي الأمور الوحيدة التي عرضت في مجمع نيقيه ، فالحقيقة أنه ابتداءً مـن مجمـع نيقيـه ، بـدأت المسيحية تهجر الحظيرة اليهودية ، فقانون الإيمان المسيحي الذي بدأ فـي نيقيـه هـو مظهـر مـن

مظاهر هذا الانفصال، إذ أصبح واجباً على كل مؤمن بالرب «إيماناً قلبياً راسخاً» حسب تسمية قسطنطين، أن يقبل العقيدة التالية كمبدأ أساسي: «أومن بإله واحد وهو الأب القادر، صانع الأرض والسماء وكل شيء ظاهر وغير ظاهر، وأومن برب واحد هو يسوع المسيح ابن الرب الوحيد، أوجده قبل أن يوجد المخلوقات، رب الأرباب، نور الأنوار إله الآلهة، الذي وجد ولم يخلق، وهو من طينة الأب نفسها الذي خلق كل الأشياء».

ما من شك أن يسوع المسيح، ولا أي واحد من حواريه كان يقبل مثل هذه الصيغة الجديدة، فالمسيح لم يفكر أو يتخيل أنه إله، فقد كان يصلي ويقول: «يا إلهي يا إلهي، لماذا تخليت عني»، وذلك في آخر ساعات حياته، ولم يكن بطرس الأسقف الأول في روما ليوافق على أن المسيح قد أوجد قبل أن يخلق العالم، فأولئك الذين تبعوا ذلك الواعظ البسيط في منطقة الجليل ورأوه عياناً، وتناولوا الخبز معه، وصلوا في الكنيس معه، وأصغوا إلى صلوات طقوسه اليهودية، كلهم قد تقبله وآمن به بأنه المسيح، واعتقدوا أن نهاية العالم قد أوشكت على الحدوث وما كانوا ليقبلوه على أنه رب الأرباب، ولكن ربما أن أكثرية المسيحيين كانوا وثنيين متحولين، لهذا فإن مسيرة المسيحية نحو الوثنية كانت تقتضي وتستدعي عدة تسويات، وتنازلات ويظهر أحياناً أن عملية التنصير أو التحويل إلى المسيحية قد حل محلها عملية اعتناق النصرانية، وبالنسبة لكثير من الوثنيين عدت مريم العذراء اسماً بديلاً جديداً لربة الخصب التي كانوا يعبدونها، فالمجموعة الأولمبية اليونانية من الآلهة الوثنية اتخذت أسماء جديدة بتغيير بسيط أو حتى دون تغيير في قلوب ونوايا المؤمنين، هذا ولم يكن العالم المعروف قد سار في هذا الطريق المصطنع من طرق التحول إلى المسيحية، ففرنسا، وألمانيا، وبريطانيا، ومنطقة البلقان، ومعظم المشرق لم تكن قد تحولت إلى المسيحية بعد، والشعوب اللومباردية والهون والقوط الغربيون والسكسون، والألمان الذين سوف يسيطرون على معظم أوربا وأفريقيا في المستقبل، لم يكن هؤلاء قد سمعوا بالعهد الجديد (الإنجيل) وفوق ذلك فقد كانت القضايا العميقة في العقيدة المسيحية لا تعني إلا القليل بالنسبة إليهم، وذلك لكونهم غير مثقفين، وأميين، لم يفهموا مغاليق

الأمور، وقد ظل النزاع العقائدي محصوراً بالكهنة ووقفاً على رجال الاكليروس ذوي المناصب الرفيعة فقط، أما رجال الاكليروس البسطاء، أكثرية الأسرة اللاهوتية فبالكاد كانوا يستطيعون قراءة الصلوات، فكيف بالولوج إلى مسالك القضايا اللاهوتية؟ وسرعان ما نسيت الأصول اليهودية في مجرى التاريخ المسيحي، ولهذا فإن صور المسيح وأسرته، والحواريين، كما ظهرت في أعمال الفسيفساء، وفي التماثيل البيزنطية والرومانسية والقوطية، كل هذه قد اجتثت منها وأزيلت جميع الآثار اليهودية المحيطة بها، فمجمع نيقيه ما هو إلا بداية لذلك الطريق الطويل والعملية الكبيرة للغربة ولإبعاد المسيحية عن المراسي اليهودية، فاليهودي في الأراضي المسيحية أصبح الآن يعيش وهو في حماية الصليب، وفي ظله وكان ذلك الظل ظلاً طويلاً حقاً، فقد حدثت حوادث في غياهب الظلام ظلام ذلك الظل، كافية لجعل يسوع المسيح يرتعد.

فبعد أن أصدر مجمع نيقيه قانون الإيمان المسيحي شرع في إزالة آخر أثر من آثار البقايا اليهودية في الكنيسة المسيحية، فقد كان من اهتمامات الكنيسة لمدة طويلة أن تحتفل بعيد الفصح عند اليهود، فلم يكن هذا العيد أحد الأعياد اليهودية الهامة فحسب، ولكنه كان عيداً يحتل دوراً مرموقاً في قصة قيام المسيحية الأولى، فقد توفي المسيح يوم عيد الفصح اليهودي، والعشاء الرباني الأخير هو أحد أعياد السيدر Seder اليهودية، فقد بارك يسوع الخبز، ثم قطعه ووزعه بين حوارييه، طبقاً لعادة يهودية قديمة، وقد بارك الخمر أيضاً وذلك طبقاً لاحتفال اليهود بكيدوش Kiddush وهو رمز تقديس الخمر، وقد كان عيد الفصح اليهودي يحل في الرابع عشر من نيسان، وهو أول أشهر الربيع عند اليهود، وقد ظل الاحتفاظ بهذا التاريخ عادة من عادات الكنيسة الأولى، وخصوصاً في الكنيسة الشرقية التي كانت تتمسك بهذا العيد، وهو لا يزال يسمى باساه Passah (وفيما بعد أصبح الإنكليز يدعونه الشرقي، لأن آلهة الربيع عند الانجلوسكسونيين تدعى الشرقية) ولم يعد هذا العيد عيد التحرر من ربق العبودية المصرية، ولكنه أصبح عيد حرية القيامة، وقد أزيل الحمل من مائدة السيدر Seder اليهودية، وأصبح المسيح نفسه هو الحمل

والضحية الأبدية الخالدة، وناضل الأساقفة السوريون وأساقفة أنطاكية للإبقاء على هذا التاريخ اليهودي، ولكنهم أخفقوا وتقرر إلغاؤه.

ولخص قسطنطين في خطابه الموجه للكنيسة قضية عيد الفصح اليهودي بهذه الكلمات: «لقد ناقشنا في هذا الاجتماع قضية عيد الفصح المقدس، وتقرر بإجماع كل الحضور أن يبقى هذا العيد وتراعى حرمته لدى الجميع، وفي كل مكان في يوم واحد لأنه ليس لدينا أشرف وأنسب من هذا العيد الذي تؤرخ شروعاً منه آمالنا بالخلود، ولهذا يجب أن يحتفل به الجميع دون انقطاع، طبقاً لنظام موحد وترتيب منسق.

وظهر لنا في البداية أنه لا يليق بنا ونحن نحتفل بهذا العيد ذي التقديس الكلي، أن نتبع عادات اليهود الذين دنسوا أيديهم بكبائر الذنوب، الأمر الذي سبب لهم عمى البصائر، وأصبح باستطاعتنا إذا أردنا أن نعدل عن عاداتهم ونهجرها، أن نحدد أمد الاحتفال بهذا العيد بالنسبة للأجيال القادمة، وذلك باتخاذ ترتيب جديد أكثر صدقاً، حفظناه ابتداء من أول يوم من أيام آلام المسيح حتى وقتنا هذا، وهكذا لم يعد بيننا وبين ذلك الشعب اليهودي المكروه، اللعين أي أمر مشترك، وذلك لأننا قد استلهمنا من حياة مخلصنا طريقة ونهجاً مختلفاً وهو نهج شرعي قانوني وشريف لائق بديننا المقدس ولهذا دعونا أيها الإخوان المبجلين نتبنى هذا النهج بالإجماع، وأن نبادر إلى الانسحاب من كل اشتراك في نذالتهم وحقارتهم، فهم يتباهون ويتفاخرون فيما بينهم وبين أنفسهم، أننا لا نستطيع أن نحتفل بأي عيد دون الحصول على التعليمات الخاصة منهم بالذات، وأخيراً فليحفظكم الرب أيها الإخوة الأحباء».

وكان قسطنطين قد أصدر مرسوماً عام 321م ألغى بموجبه الاحتفال بالسبت اليهودي من الحياة المسيحية، ولكن على الرغم من محاولات الكنيسة لإحياء يوم الأحد وجعله بمثابة ذكرى أسبوعية للقيامة ما زلنا نجد أن كثيراً من المجتمعات المسيحية ما برحت تلتزم بالسبت اليهودي، هذا وكان منطوق المرسوم الإمبراطوري كما يلي: «على جميع القضاة وعامة الشعب في المدينة، والعمال في جميع الحرف أن يخلدوا للراحة يوم الأحد المقدس، أما الذين يعيشون في الريف، فعليهم أن يهتموا بزراعة الحقول بحرية تامة ودونما حرج، مادام

الاعتناء بالحبوب في الحقول والكروم لا يمكن تأجيله من يوم لآخر، وذلك حتى لا تضيع الفوائد التي تمنحها العناية الإلهية في لحظة من اللحظات غير المناسبة»، وأيد مجمع نيقية هذا المرسوم، مع هذا ثبت أن التقاليد اليهودية كانت أقوى من المرسوم بكثير، ولهذا وبعد مرور ربع قرن من الزمان، وفي مجمع لادوكيا، اتخذوا قراراً أشد لهجة استعملت به لغة القوة، إذ يقول بصرامة: «لا يجوز للمسيحيين أن يتهودوا، ويجلسوا كسالى يوم السبت، ولكن عليهم أن يشتغلوا في هذا اليوم، وعليهم أن يحترموا يوم الرب قدر استطاعتهم ما داموا مسيحيين، إنما إذا أصروا أن يظلوا يهوداً عندها يجب أن تحل عليهم لعنة المسيح وحرمانه» وبهذا الحظر ضد المسيحيين الذين يحتفلون بالفصح اليهودي نجد أن المسيحية قد هدمت آخر جسور الاتصال بينها وبين الدين الأم، واستقرت على دينها الخاص.

ولنتحول الآن إلى ذكر تطور آخر لا يستغني عنه كل من يبغي تفهم نمو المسيحية وتطورها، ألا هو ذلك الفيض من القوى المزعجة الخلاقة المعروفة باسم الرهبنة، فدافع الرهبنة الذي بدأ في أوائل القرن الثالث الميلادي اشتدت قوته وعظمت حرارته على يد واحد من عظماء الأقباط المصريين اسمه أنطونيوس، وهو القديس أنطونيوس الشهير بالأغراء، وقد ولد في قرية كوم في مصر الوسطى، وليس من العجب ولا هو من قبيل الصدفة أن تبدأ فكرة الرهبنة في المشرق وليس في روما، فقد وجدت حركات الزهد والتقشف في المشرق منذ أقدم الأزمنة، ولا تزال حتى يومنا هذا، فنكران الذات الذي اشتهر به الرهبان البوذيون والكهنة التيبيتيون، وفقراء الهنود فضلاً عن حب العدالة والصبر والتأمل والتركيز النظامي كل هذه من الصفات النموذجية التي تميز بها الشرق، فاليهودية الأولى كانت على هذا الصعيد ديناً شرقياً، وإن توكيد هذه الديانة على الحياة وإثبات قيمتها يجب ألا يجعلنا نغفل تلك الحقيقة، وهي أن كثيراً من المبتدعات اليهودية قد نتجت من فكرة الرهبنة وحياة الزهد والتقشف، فتاريخ اليهود القديم لا ينحصر في الأراضي التي اغتصبوها واحتلوها، والمناطق التي عمروها وزرعوها، والحياة المدنية المألوفة عندهم، بل في الصحراء، فالحرارة الشديدة، والاجتهاد والجوع والتمرد والتقشف والكفاح للحصول على الخبز والماء، كل هذه الأشياء تعد من الدوافع الخلاقة البطولية التي أثرت في وجود اليهودية، وقد كان هذا تفكير الأنبياء

أيضاً، وهذا التفكير بحد ذاته له خطره ومغزاه، وذلك لأن حركة الأنبياء وهي تلك الحركة الأدبية الفصيحة التي ساهمت في الإبداع الخلاق لليهودية الجديدة التي تختلف عن المؤسسات الدينية والعبادات الكهنوتية، كل هذه الحركات لها أصل واحد يكمن في المثل العليا التقشفية، والأب الروحي لها، كان إيليا الذي كان يجلس لوحده على جدول المياه مهجوراً مشمئزاً من الحياة في العاصمة، ومن الملك والكهنة وجميع المؤسسات الدينية، يتغذى من طعام الغربان، ويواجه الرب، متحدياً رياح الصحراء العنيفة، والمدارس النبوية الأولى عاش بعضها مع بعض في مجموعات، وكانت تطوف في طول البلاد وعرضها، وترقص بنشوة ووجد على أنغام الموسيقا المثيرة، وأصبح موسى يهودي البلاط المصري من رجال الصحراء، (والنار التي رآها في العليقة هي رمز الصحراء) ولم يكن عدم السماح له بدخول الأراضي المزروعة مجرد عقاب، بل كان ترتيلة عظيمة وتسبيحاً لتمجيد الصحراء والزهد والتقشف، فشعب موسى وليس موسى نفسه هم الذين تذمروا من طعام الصحراء واشتاقوا إلى أطباق اللحم في مصر، وإن الميل للرهبنة الذي ساق الأنبياء الكلاسيكيين لترك حقولهم وأسرهم وترك أشجار الجميز الظليلة، ليصبحوا خدماً مطيعين ومبشرين لدين الرب، هذا الميل للتقشف هو جزء أساسي من مظاهر نمو الديانة اليهودية، فيوحنا المعمدان الذي ارتدى ملابس لا تكاد تستر عورته، وعاش حياة العزلة والتجرد على ضفة النهر، لم يكن إلا واحداً من كثيرين من أفراد هذه الطائفة، والايسينيون الذين كانوا يأكلون طعامهم معاً، ويحفرون قبورهم بأيديهم ويرتدون الملابس الخشنة المصنوعة من الشعر ويحرثون الأراضي المشاع، كان هؤلاء يشبهون إلى حد بعيد رهبان العصور الوسطى، فالفقر الطوعي وقواعد الصفاء والنقاوة كانت هي المثل العليا المقبولة، ولا يعلم بالتحديد فيما إذا كان يسوع المسيح واحداً من أفراد طائفة قمران التي كانت أديرتها موجودة على شواطئ البحر الميت، ولكن ذلك لا يهمنا في هذا الصدد، بل الذي يهمنا هو أن هذه الأديرة كانت موجودة، وأن اليهودية دائماً هي الدين العنيف المنشغل بشؤون الحياة، فالحركات الباطنية والسرية التي نشأت منذ أوائل العصور الوسطى حتى زمن طائفة الحسيديم Hassidic هي شاهد على هذا الاتجاه، وقد كتبت بعض الأمثلة الدالة على الخلق والإبداع الديني والتفكير والأغاني

والقصص على يد رجال عاشوا في عزلة وزهد، وقد تفرغوا لخدمة الرب بحماس وضراوة لا تقل عن ضراوة حب الحياة نفسها، لا بل حتى يسوع نفسه يمكن أن نعده راهباً فقد قال: «ليس لي إخوة أو أخوات».

في الحقيقة إنه يجدر بنا أن ننظر إلى حركة الرهبنة في الديانة المسيحية كاستمرار عفوي لتقاليد الزهد في المرحلة ما قبل المسيحية، وأن تطورها المتأخر تجاه التنظيم ووظائفها الكنسية وإدارة أمورها وانتشارها في جميع أنحاء العالم، وعبادتها الرسمية لم تكن إلا انحرافاً عن تعاليم يسوع المسيح وحوارييه، ومن المؤكد أن هذه الاصطلاحات قد استعملت في زمن فارغ تاريخياً، فلو لم تبدأ الكنيسة في البناء والتخطيط، والتملك، والتنظيم، لما استطاعت المسيحية أن تقف على رجليها أبداً، وهكذا كان مصير جميع المثاليات السامية فحالما تصبح هذه حقائق ملموسة إذا بها تسقط وتصبح فريسة للكذب والافتراءات في عملية إدراكها وتحقيقها يبدأ بتعريضها للشبهة، فتتقلص لتصبح ضئيلة ضآلة الإنسان نفسه، أما محاولة التعديل فتعد خيانة.

وهكذا أصبحت الرهبنة معيناً لا ينضب للمسيحية النامية، وإذا ما جاز لنا أن نسلم بالتناقض الظاهري، وهو أن أولئك الذين كانوا يتناولون القليل من الطعام ما هم إلا المغذون للمتخمين بالطعام، وذوي الملابس الأنيقة المغرورين، نجد أن هذه حقيقة واقعة، فلولا التحذيرات والتذكيرات المستمرة القاسية اللهجة التي كانت تصدر عن الرهبان، لهلكت المسيحية في مستنقع التسويات والحلول اليومية الوسيطة، وإن دوافع عشرات الألوف من الرجال والنساء الذين اختاروا حياة الرهبنة تختلف تبعاً لسيرة كل فرد من أفراد هؤلاء الرهبان والراهبات، ولكن ليس هنالك من شك أن هذه الدوافع كانت تتفرع من عملية الذبذبة والجذب غير المحتملة بين المثاليات للحياة النقية الصادقة، وبين رغبات ومتطلبات الجسد والطبيعة البشرية، ولهذا نجد أن المعركة ضد الرغبات الجسدية تحتل مركز الصدارة في كتابات الرهبان فقد كان يسوع المسيح يحتقر الشهوات الجسدية، أما بولص الرسول فقد جعل شتم وتعداد مساوئ الجسد موضوعاً رئيساً لوعظه وتحذيراته في رسائله، لأن في اعتقاده أن حب الرب يتطلب إماتة الجسد، ثم نقرأ ما كتبه أحد مشاهير الرهبان في القرن الحادي عشر، وهو

بطرس دامين : «وهكذا فما عليكم سوى حب الرب، وإماتة أنفسكم، فالرجل العاقل ذو النية الصادقة لتأمين خلاصه يعمل للقضاء على الرذائل ويكبح جماح الشهوات الجنسية، ويلجم الجوارح والأطراف والمعدة بلجام قتل النفس، والقضاء على الشهوات». هذا وطلب الرسول بطرس نبذ الجسد وإهماله إهمالاً تاماً، إذ قال : «تعال الآن أيها الأخ، ما هذا الجسد الذي تغطيه وتلبسه أفخم لباس بأقصى عناية، وتغذيه برفق كما لو أنه من الذرية الصالحة، أليس هذا الجسم كتلة من العفن والفساد؟ أليس هو طعام الدود، وغبار ورماد؟ إن الرجل العاقل لا ينظر إلى الجسد كما هو الآن بل إلى ما سيكون عليه في المستقبل من قيح وقذارة، وعفن وأوساخ الفحش والفساد، وهكذا ترك الرهبان العظام، مؤسسو الإخوانيات، منازلهم وأسرهم وأحياناً ترك أصحاب العروش عروشهم لأنهم لم يستطيعوا أن يتعايشوا مع أنفسهم في مجتمع يؤمن بإرضاء رغبات الجسد، ولهذا في خضم هذا الصراع ولدت فكرة الرهبنة، فقد أصبح أنطونيوس ناسكاً في قريته الصغيرة (كوم) في مصر، وشاركه مئتان وسبعة من أتباعه القرويين في قبول فكرة التقشف، وقد عاشوا أولاً في كهوف، وبعد ذلك اتخذوا من صحراء النطرون وسيتز Setis ذات الرياح الحارة، والشمس المحرقة مقراً لهم وديراً، وقد أسس رجل مصري آخر يدعى باخوم[1] ديراً له قرب درنده وأخميم، كان به أخوية تشبه الإخوانيات التي نشأت في المستقبل، وكانوا يقسمون أوقاتهم بين العمل والعبادة، وكانوا يلبسون ألبسة موحدة متشابهة، ولما كانوا يتكلمون اللغة الآرامية، التي يدعى بها راعي الدير (آبا) أصبحت هذه الكلمة أصل كلمة Abbot، أي راعي الدير، هذا وكان هنالك دير للنساء أيضاً، وقد كان هنالك بعض الزهاد والمتنسكين الذي لم يستطيعوا أن يجاروا الآخرين في يأسهم ووحدتهم، ولم يستطيعوا أن يتقيدوا بالقوانين والأنظمة، ولذلك

(1) يبدو أن القديس باخوم كان بالأصل من أهالي الوجه البحري، ولد لأبوين وثنيين، وعمل جندياً في جيش قسطنطين حتى اهتدى إلى المسيحية، فترك الجيش وانسحب إلى الصحراء وشيد أول دير قرب درنده حوالي سنة 315 ـ 320م وتأثر باخوم بنظام الجيش الروماني، لذلك جاء ديره أشبه ما يكون في تصميمه ونظامه بما ساد في مخيمات الجنود الرومان، انظر كتاب : أوروبا في العصور الوسطى لسعيد عبد الفتاح عاشور. ط. القاهرة 1966 : 172 ـ 175.

ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فقد طرحوا مستلزمات أجسامهم ورغباتهم الجسدية وفرضوا على أنفسهم الحرمان الكلي من تلك الرغبات، وهكذا نرى سمعان العمودي الذي عاش ثلاثين عاماً طويلة على رأس عمود شرقي أنطاكية، وقد كتب عنه (كرين برنتون) يقول: «لقد عاش في أعلى العمود على علو ستين قدماً، تحت وطأة السماء السورية» (يظهر أن العمود كان يحتوي على سياج)، وكان سمعان يأكل ويشرب وينام، ويتغوط قليلاً، ويعظ الناس عاماً بعد عام، ولكن سرعان ما وضح للزهاد والنساك أنهم إذا عاشوا مجتمعين يؤثر بعضهم ببعض، ويصلون معاً، وكل ذلك يجعل تدريباتهم ذات معنى أكبر من الوحدة والانعزال المضحك فوق عمود، وفي القرن الرابع دعا الراهب باسيل رفاقه الرهبان لأن يشتغلوا معاً في الحقول، وأن يلتزموا ببرامج دقيقة للصلاة أمراً له دلالته وأهميته، وهو دعوة الرهبان للاشتراك في أعمال الإحسان في المجتمع، ولكن لم يمض زمن طويل حتى تغلبت فكرة حياة الزهد الشرقية على الغرب، فأصبحت الرهبنة أعظم حركة في الكنيسة بأسرها مما سبب إنقاذ الكنيسة والبابوية كما سلف وألمعنا، بل إنقاذ المسيحية بأسرها من هوة الإجهاض والتحطم، وقد أسس (مارتن) وهو من (تور) أول دير في فرنسا، وبعد برهة قصيرة طلب يوسيبيوس أسقف فوسيلي في إيطاليا من الاكليروس في كاتدرائيته أن يمارسوا حياة الرهبنة، وأن يكرسوا بعض سنوات من حياتهم على العيش في الأديرة، على أساس أن هذا العمل سيكون ملهماً مجدداً لنشاطهم الروحاني في التعليم والتقوى.

وكتب فصل خطير من فصول الرهبنة في ايرلندا، فقد قابل هناك كولومبان الايرلندي الذي كان يقاسي من وخز الضمير لانغماسه في ملذات الجسد، قابل أحد الرجال المنعزلين عن العالم، الذي وصف له قضية الرهبنة بما يلي: «هل تعتقد أنك تستطيع أن تقاوم غواية النساء زمناً طويلاً وأن تستمع مختاراً لأصواتهن، وهل نسيت قصة آدم الذي هزمته حواء، وشمشون الذي أغوته دليلة، وداود الذي سحره جمال بتشيبا، وسليمان الذي ضل الصراط المستقيم على الرغم من حكمته، وذلك بتعلقه بحب النساء؟ أيها الرجل الشاب، عليك أن تناضل إذا أردت أن تتجنب السقوط!».

لم يدر هذا الرجل المنعزل عن العالم، والمجهول الاسم أن نصيحته هذه كان لها أثرها في نفس كولومان، وهذا ما أدى إلى بداية نشوء رهبنات في بلدان بعيدة، ولهذا فقد أطلق لنفسه عنان الالتزام بالصيام والصلاة، بدلاً من المباهج والمسرات الجسدية ولكنه أخيراً وجد أن العلاج غير كاف، فترك ايرلندا، وتوجه إلى غابات فرنسا حيث اشترك مع إثني عشر رجلاً كلهم على شاكلته، قد رضوا بتعذيب أجسادهم، وكانوا يتغذون بلحاء الأشجار والجذور والتوت البري، وصدف أن سمع ملك برغنديا بقصة هذه العصابة الغريبة من الرجال لكن المخلصين، فوضع تحت تصرفهم قلعة في هوتي ساون، وبدأ هذا الدير البدائي الذي يرأسه كولومان العالم البسيط، يجتذب كثيراً من الناس، حتى أن الملك أضاف لهم قلعتين أخريين وهما قلعة لوكسويل، وفوتنان، وأصبحت لوكسويل تدعى بيت تدريب الرهبان، وكانوا بعد انتهاء أمد تدريبهم هناك يتركون الدير ويصبحون مبشرين، حيث أسسوا أديرة جديدة في بال، ونورماندي، وحوض الراين.

وفي حركة كولومان الرهبانية نجد قاعدة كاملة مبرمجة قوامها: «لندع الراهب يعيش في دير تحت إشراف أب واحد يرافقه الكثيرون ليتعلم التواضع من أحدهم والصبر من الآخرين، ويقتبس من الأول الصمت، ومن الآخر الحلم، يجب ألا يسمح له أن يفعل ما يريده، بل يأكل ما يؤمن بأكله، ولا يجوز له أن يمتلك إلا ما يعطى له، وينبغي أن يتقبل الأوامر التي ربما لا تروق له ويطيعها، ولا يجوز له أن يخلد للنوم إلا بعد أن ينهك جسمه بالتعب والنصب، وإذا ما استسلم للنوم فعليه أن يكون مستعداً للاستيقاظ قبل الاكتفاء من النوم، وإذا أصابه مكروه أن يكون مستعداً بل يلتزم الصمت، ويجدر بنا أن نذكر القارئ أن حركة الرهبنة بدأت على شكل حركة علمانية، لم يشجعها الاكليروس، ولم ترتبط بهم، وقد جاء اشتراك رجال الدين بها فيما بعد، فقد نجح الرجل الايرلندي البسيط في جعل هذه الحركة شعبية، فبعد مئتي سنة تقريباً من جلوس سمعان على قاذوراته فوق عموده قرب أنطاكية، ذلك العمل الذي كان يعد بطولياً، وإن لم يخل من عرض سخيف للتصميم على الزهد، قزم ومشوه الخلقة، نجد أن هذه الحركة قد تطورت وأصبحت مؤسسة مقبولة محترمة.

وخلال السنوات التي كان بها أتباع كولومان يؤسسون أديرتهم شمال جبال الألب، كانت أهم الإخوانيات الرهبانية تلاقي نجاحاً في إيطاليا، ففي عام 529م بني أول دير على جبل كازينو في جنوب شرقي روما، وقد قدر لهذا الدير أن يصبح رائد الأديرة للرهبان البندكتيين، فمؤسسها بندكت، أتى من مدينة نورسيا في أمبريا في إيطاليا، وتتلمذ في روما، لكنه هجر العاصمة العظيمة، ليس لأنه لم يستطع أن يكبح جماح رغباته الجسدية، بل لأنه ارتاع وخاف من حياة مدينة لم تنس أصولها الوثنية، ولم تفهم الكثير من الإيمان المسيحي، وهكذا تطورت المعيشة الرتيبة بها، فأصبح يجدها حياة كريهة، ومذلة، ولهذا اتخذ لنفسه حياة جديدة فسكن أولاً في كهف موحش في جبال سوبياكو شرقي روما، ثم بعد ذلك جبل كازينو، وبمرور الزمن نال التقديس، وهو اليوم يعد واحداً من كبار القديسين في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

وكان بندكت رجلاً موهوباً يتصف بمجموعة من الصفات الحميدة منها: الحماس الشديد لفكرة الرهبنة، والإحساس المرهف بالتنظيم الذي قلما نجده عند الرهبان، وبعد النظر غير العادي، الذي استطاع بوساطته أن يتنبأ بالإمكانيات الكافية لإخوانيات الرهبان في الأخذ بيد الكنيسة وإنمائها وتقدمها، ولهذا بدأ بتنظيم الحياة في دير جبل كازينو، وأسسها على المثل العليا القديمة من الفقر الطوعي الاختياري إلى الطهارة، والنقاء والصفاء التام، وقسم أوقات النهار إلى مدد من العمل الجاد تتخلله حوالي أربع ساعات للصلاة والعبادة، غير أنه أضاف شيئاً لم يكن عادياً كما لم يكن موجوداً وهو مطالعة الكتب، ولهذا أصبح دير جبل كازينو أول مكتبة رهبانية لها أهميتها إذ لم يرض الرهبان البندكتيون بالطاعة العمياء، التي كانت من الأمور المسلم بها بالنسبة للرهبنة، إنهم ارتفعوا عن المستوى البدائي المتخلف لمعظم الأديرة الموجودة فأصبحوا هم الصفوة والنخبة في عصر انتشرت فيه الأمية، وعم فيه التخلف بين معظم رجال الاكليروس والعلمانيين، فأصبحت كتابة وقراءة المخطوطات وفن التزيين ومهارات الترجمة، والتفاسير من أهم وظائف وأعمال هذه الإخوانية التي بدأت تنتشر خلال عدة أجزاء أوروبية، وبصورة خاصة في فرنسا وألمانيا.

واشتركت طبقة النبلاء في حركة الرهبنة، وقامت بدور فعال فيها، ففي إنكلترا ظهر أوغسطين (وهذا ليس هو أوغسطين صاحب الاعترافات بل هو شخص آخر ظهر بعد ذاك) وبنى دير كانتربري وقد التحق حوالي ثلاثون ملكاً إنكليزياً من الأسر الملكية القديمة البريطانية الصغيرة التي ظهرت في العصور الوسطى بالرهبنات، هذا وقد تقاطرت الأسر الألمانية النبيلة، وهرعت إلى الانتساب إلى الرهبانيات بأعداد كبيرة في فرتزلار، وفولدا في منطقة الراين، والألزاس، وأصبح من العادات السائدة أن يقضي المخفقون والذين كانوا منغمسين بالملذات والفسوق وقتاً في مصحة الدير، فقد هربت (ماتيلدا) ملكة فرنسا من متاعبها لتقضي الخمسة عشر عاماً الأخيرة من حياتها في دير تشيليز، وترك (كارلومان) أخو الملك (بين) القصير بحبوبة العيش في ظل عرشه ليصبح راهباً بندكتياً في دير جبل كازينو، ولم تقتصر الأسر النبيلة والملكية على إرضاء نفوس ورغبات الرهبان، بوضع القلاع والحصون تحت تصرفهم، فحسب بل عمد كثير من أفرادها إلى اتباع أساليب التوبة المعروفة في تلك العصور، والتي كانت تؤلف مظهراً من مظاهر الحياة في العصور الوسطى.

ولقد نجحت المسيحية في نشر الحضارة بين البرابرة، وهكذا أصبح الفرنجة، والألمان، والإنكليز الورثة المتأخرين للتراث والحضارة الإغريقية والرومانية القديمة، بعد أن كان أول احتكاك لهم بثقافة البحر المتوسط قد تم عن طريق الجيوش الرومانية، تلك الجيوش التي كانت تمثل حضارة قديمة على وشك الانهيار والزوال، ومع أنه كان من الواجب ممارسة الضغوط الشديدة لإقناع السكسونيين والسلاف بالتحول إلى الديانة المسيحية، إلا أن هذه الجهود لم تبذل عبثاً إذ بينما استمر عبيد الأرض والفلاحون بالتمسك بالمعتقدات الوثنية القديمة، نجد أن طبقة النبلاء المثقفة ما لبثت أن انضمت إلى المسيرة المسيحية، فالحروب المستمرة وانتشار الأوبئة والأمراض الجارفة، واللصوص، وقطاع الطرق وانعدام الأمن والاطمئنان على الحياة كل هذا أدى إلى إيجاد نوع من الشوق والحنين إلى حياة أفضل، ووجود له معناه، فغضب الرب، والمطهر، وجهنم، واليوم الآخر، والثواب والعقاب في الآخرة، كل هذه الأمور كانت مدعاة للخوف الحقيقي بين

جماهير العصور الوسطى، حتى جرت العادة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر على أن تعمد كل كاتدرائية رومانية قوطية إلى الإنذار بالغضب الإلهي القادم، بوساطة نحت النقوش المخيفة المرعبة، فوق أبواب تلك الكاتدرائيات، ولم تكن النقوش مهذبة، فالأجسام التي نزل بها العذاب في يوم الدينونة، والتي رسمها رجال من كبار الفنانين في العصور الوسطى، من أحفاد النحاتين اليونانيين القدماء، هذه الأجسام وهذا العذاب توحي بإحساس الارتباط العاطفي في نفوس أولئك المتعبدين الأتقياء الخائفين، ذلك الشعور الذي لا يكاد يشعر به أي سائح حديث يأتي إلى ريمس، وتشارترز، وبامبرج، فالرجل في العصور الوسطى عندما كان ينظر إلى الأعلى حال وصوله إلى الكنيسة، فيرى نفسه تهلك في لهيب الجحيم، يذوب إشفاقاً وفرقاً ورجاء بالعفو والغفران بشكل حقيقي، وبالتدريج ارتفع مقام الأديرة، وأصبحت مستودعاً للحياة المسيحية الحقيقية، وهكذا تحولت المسيحية إلى مؤسسة عالمية واسعة الانتشار، على رأسها هيئة الكهنوت من الأساقفة والاكليروس الذين كانت حياتهم لا تختلف كثيراً عن حياة العلمانيين، فالمثل المسيحية العليا التي سادت في عصر الرسل، كادت تضيع وتفقد في سلسلة الخدمات الروتينية الرسمية، وعملية الاعتراف الآلية والغفران، ثم جباية التبرعات للكنيسة، وإدارة أملاك الكنيسة، ولم يعد هناك تقيد تام بالمثل العليا القديمة، بالامتناع عن ممارسة الجنس، فلقد غصت محاكم العصور الوسطى بألوف الدعاوى التي أقامها نساء ادعين أن أبناءهن غير الشرعيين، لهم الفخر بانتسابهم لأساقفة ورجال الاكليروس، فالفسوق والانغماس في الملذات التي تمثلها وتصورها لوحات ورسوم هورتيماس بوش المتأخرة كانت جزءاً من حياة الكهنة الذين بلغ بهم الجهل مبلغاً عظيماً، بحيث فضلوا الحياة الدنيا على الآخرة، وكتب رئيس أساقفة ريجود في شهر شباط عام 1248م ما يلي: «وجدنا أن كاهن روفيل قد اتصل بزوجة أحد النحاتين اتصالاً غير شرعي، وقد قيل إنه أنجب منها طفلاً، ويقال أيضاً إن له أطفالاً كثيرين آخرين، فهو لا يلازم كنيسته، بل يقوم بلعب الكرة، ويركب متجولاً وهو يلبس معطفاً قصيراً من ملابس الرجال العسكريين»، ثم يستمر رئيس

الأساقفة ويذكر قائمة بأسماء خمسة عشر كاهناً كل منهم متهم بأعمال لا تليق بالكاهن، ثم يقول: «إن كاهن ريبوف مثلاً، وهو من رواد الحانات، يشرب حتى الثمالة، وكاهن جوري قد عرف عنه الاتصال بامرأة سيئة السمعة، وإن لورانس، وهو كاهن لونجويل، يحتفظ بزوجة شخص يعيش خارج البلاد، وهي تدعى بياتريس فاليران، وقد أنجب منها طفلاً»، وكان سلوك بعض هؤلاء الكهنة لا يقل خشونة عند أداء القداس الإلهي إذ يقول: «لقد وجدنا أن كهنة الكاتدرائية وهيئة المرتلين يتحدثون ويثرثرون وهم يتوجهون من مقعد إلى آخر في الكنيسة حتى في الوقت الذي يجري به الاحتفال بالقداس الإلهي».

إنه ليس بأمر غريب أن يتفق تقدم نظام الأديرة السريع مع هذا الوضع السيء للكهنة، فالكنائس في المدن لم يكن فيها الراحة النفسية للمؤمنين، فالمبشرون المتحمسون الذين كانوا يتركون الأديرة ويسافرون لنشر تعاليم الإنجيل بين الناس في الكاتدرائيات غالباً ما وجدوا أنفسهم مضطرين للتحدث مع رجال الاكليروس كلاماً، أصبح هؤلاء الاكليروس في مسيس الحاجة إليه، وهكذا أصبحت الفجوة بين الدين المسيحي الرسمي وتطبيق أنظمة الأديرة وقوانينها واسعة لا يمكن وصلها، ولسوف يأتي زمن نرى فيه الأديرة تستسلم للفساد أيضاً، ولكن عندها ستكون إخوانيات جديدة قد ظهرت، والقديمة قد تجددت لا بل حتى البابوية نفسها تنجذب إلى مهاوي الهرم والانحلال وحينها ترتفع الأصوات مطالبة بإصلاح الأنظمة الكهنوتية، وفي ذلك الوقت وهو منتصف القرن الحادي عشر سنرى بشائر أولى ثمرات الجهود الكهنوتية التي تنقلت من تلك البدايات البسيطة للأديرة في مصر وسورية إلى مجهودات القديس بندكت التقية الصافية، فالقديس برنارد من كليرفو، ولكن قبل أن نعالج هذا كله يحسن بنا الرجوع قليلاً إلى الوراء، إلى العقود الأخيرة من حياة الإمبراطورية الرومانية، وإلى البداية الفعلية للبابوية.

بعد موت قسطنطين الكبير، سقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية فريسة لمجموعات من البرابرة الشماليين، الذين اندفعوا جنوباً سعياً وراء امتلاك الأرض والنهب والسلب واغتصاب السكان من أهالي البلاد، فقد أتى الوندال والقوط الغربيون واللومبارديون

والقوط الشرقيون، واستولوا على نصف أوروبا وشمالي أفريقيا، وإن أسماء زعمائهم وأصولهم ونماذج سلوكهم ونجاحهم وإخفاقهم، في فرض أنفسهم وطرق معيشتهم، على السكان الوطنيين كل هذا حدث وكأنه السحر، إن هذا لا يعنينا بحثه في هذا الكتاب، فاهتمامنا بالحقيقة يتركز على مصير المسيحية والبابوية في هذا الخضم الهائج، إن أول مشكلة لاهوتية خلقت إثر هجرة مئات الألوف من هؤلاء الرجال المتوحشين، كانت انتعاش مذهب الآريوسية في شمال إيطاليا وإسبانيا برهة من الزمن، فالمعركة القديمة التي قرر مصيرها مؤتمر نيقيه استعر أوارها من جديد، ففي إيطاليا حيث أصبحت «رافنا» عاصمة القوط الشرقيين الآريوسيين، وبدأت المحاولات للتوفيق بين العقيدة الأثناسيوسية والآريوسية، وصادفت هذه المحاولات درجات مختلفة من النجاح، أما الفرنجة الذين استولوا على بلاد الغال فقد اعتنقوا الكاثوليكية هم وملكهم كلوفيس في ريمس عشية عيد الميلاد عام 496م، ومع أن اعتناق هذا الملك المسيحية كان في حد ذاته عملاً له أهميته وخطره العام، (أشرف على عملية الاعتناق أسقف ريمس نفسه) إلا أن تحول هذا الملك لم يكن له أثر كبير على سلوكه وأخلاقه أو سلوكية أتباعه وأخلاقهم، إذ عند أقل إشارة أو هياج كانوا يعملون سيوفهم في رقاب الأهالي، وكذلك فإنهم لم يمتنعوا عن استعمال تلك العادة السيئة، وهي قلع العين بالإصبع بسبب ذنب بسيط حتى بعد تحولهم إلى المسيحية، ولربما فهم هؤلاء عظة المسيح التي يقول بها: «اقلع العين التي تغضبك». فهماً حرفياً أكثر من اللزوم، ولهذا عمد كلوفيس إلى إرضاء ضميره فأعطى الهبات السخية للكنيسة التي أصبحت مؤسسة غنية وقوية في بلاد الغال، ولكن بالوقت نفسه كان مصراً على أن يكون له الحق بتعيين رجال الاكليروس، وهو ثمن غال دفعته الكنيسة لقاء الثروة والنفوذ.

لقد احتل القوط الشرقيون جزءاً كبيراً من إيطاليا واخترقوا أوروبا حتى القسطنطينية تقريباً، وكانت القسطنطينية لا تزال عاصمة الإمبراطورية الشرقية، ولكنهم لقوا مصيرهم المحتوم بعد حوالي ستين عاماً من ظهورهم وأعمال توسعهم، فقد قام جستنيان بطردهم، في محاولة لإعادة توحيد الإمبراطورية، إنما بدلاً من إعادة روما إلى مركزها القديم

كعاصمة، احتفظ برافنا عاصمة له، وبالطبع لقد كـان لـهذا العمـل نتائجـه الكبـيرة بالنسـبة لروما، التـي لـم يعـد بإمكانـها التنـافس للحصـول علـى السـلطة المدنيـة، وفـوق ذلـك فـإن القضاء على القوط الشرقيين قد قلـل مـن القيمـة العضويـة لمدينـة رومـا فـي خـلال العصـور الوسطى، وعلى الرغم من الفتنة والسحر التي كـانت ترافـق الانتخابـات البابويـة أو تتويـج الأباطرة، بقيت روما مهدمة خربة حتى أعيد بناؤها زمن عصر النهضـة، وبينمـا كـانت مـن قبل تتسع لحوالي نصف مليون نسمة، أصبحت الآن مدينة يسكنها حوالـي خمسـون ألفـاً، ومن الغريب أن نجد هذا التطور المؤسف نعمة وبركة بالنسبة للبابويـة، أو بـالأحرى مـا بقـي من الإمبراطورية أصبحت روما معروفة بأنها عاصمة البابا، ونحن إذ نقول: عاصمـة البابـا ليس مقر البابا، نفعل ذلك لأن الكلام هو عن مركز حكومـة البابـا وسـلطته، وليـس حـول مجرد مقره الشخصي، فقد سلف وذكرنا شيئاً عن البابا جيلاسيوس الأول الذي تربع على عرش البابوية من عام 492 ـ 496م، وأكد على سلطته البابا، وحقه في الحكم، وأوضـح أن العالم يحكمه إمبراطوران: واحد للشؤون الدنيويـة، وآخـر للشـؤون الروحيـة، ولكـن صعوبة الإبقاء على سلطة هذين الحاكمين على قدم المساواة بقيت المشكلة الأبديـة والدائمـة للبابوية، وبهذه المناسـبة سـوف نخصـص بعـض الوقـت للتحـدث عـن «رافنـا» وجسـتنيان إمبراطورها اللامع، والعبقري والكبير الأهمية.

لا يمكن لأحد أن يقول إن جستنيان كـان مـن أصـل سـلافي، خصوصـاً عنـد سـماع اسمه الكـامل، وهـو فلافيـوس أبسـيوس يوسـتينانوس، ولكـن فـي الحقيقـة إن هـذا الملـك العظيم ينتسب إلى أسـرة بربريـة سـلافية الأصـل، وإن اسـمه الحقيقـي الأصلـي هـو يبـرودا Uprada، ومعناه «العادل» إذ عندما كان يتكلم اللغة اليونانية، التي أجادهـا بطلاقـة، قيـل إنه احتفظ بشيء من اللكنة البربرية، هـذا وإن اللجـان المختلفـة التـي عينـها جسـتنيان تحـت إشراف ألمع وأبـرز رجـال القـانون فـي الإمبراطوريـة، نجحـت فـي جمـع وترتيـب وتبويـب القوانين العامة التي كانت حتى ذلك الوقت مبعثرة هنا وهناك، أو كان الوصول إليها صعبـاً جداً، ولكن ما يهمنا هنا هو الدور الذي قام به هذا الإمبراطور بالنسبة للشؤون الكنسية.

لما كان جستنيان شرقياً، فقد حصر اهتمامه بالكنيسة الشرقية التي مركزها القسطنطينية وليس بالكنيسة الرومانية اللاتينية، ففي الشرق شغل الإمبراطور واهتم بشكل لم يسبق لأي ملك أن شغل به لا من قبله ولا من بعده، وخاصة بتفاصيل الصراع اللاهوتي (ساعده في جولاته الدينية وقراراته ثيودورا زوجته الشهيرة، التي لم يمنعها ماضيها كراقصة أو ربما مومس كما يقول البعض، من أن تهتم بمتابعة الشؤون اللاهوتية)، وإنه لمن الأهمية بمكان بالنسبة لتاريخ الكنيسة أن عدّ جستنيان نفسه الحبر الأعظم للكنيسة فضلاً عن مركزه كإمبراطور، وبالنسبة إليه فقد عدّ أن هاتين الوظيفتين متلازمتان لا تنفصلان، فكان هو رئيس الدولة والكنيسة بالوقت نفسه، ولما كان البابا، خلال حكم جستنيان رجلاً طاعناً في السن وضعيفاً، لم يواجه جستنيان بأية مقاومة ذات أثر في روما.

لاشك أن جستنيان كان يهدف إلى إعادة بناء الدولة على أسس مسيحية صحيحة، زد على ذلك أنه كان يبغي جاداً صهر الدولة بالكنيسة صهراً تاماً، وليس مجرد حماية الكنيسة وأملاكها، وحقوقها، فمفاهيمه عن الحقوق المدنية، كانت ذات علاقة بالشؤون المسيحية الدينية، ومدونة جستنيان لم تكن مجرد مواد قانونية بل وثائق دينية، وهي أساس دستور الديانة المسيحية أيضاً، وكل شيء صدر عن قناعاته اللاهوتية وإيمانه، فقد ضاق ذرعاً ببقايا الوثنيين، لذلك عمد إلى إقفال جميع المدارس الفلسفية، مع أن هذه المدارس في أثينا كانت في هذه المرحلة أقرب إلى المسيحية الأصيلة من غيرها، حتى من بعض المؤسسات الدينية المسيحية نفسها، أما اليهود فقد أعلن أنه سيعاملهم معاملة إنسانية مادام أنهم من مخلوقات الرب، ومع أن العبودية لم تكن قد ألغيت، إلا أنه أمر بأن يعامل العبيد بهذه الروح نفسها، والمبادئ ذاتها، ولا يزال الكثيرون يذكرون فضل جستنيان وخدماته للكنيسة البيزنطية، وفن العمارة والفنون عامة، وكذلك الأدب، ولا تزال أعمال الفسيفساء في رافنا تشهد بديمومتها على عبقرية ذلك الرجل الذي دعي باستحقاق «العظيم».

لقد كان جستنيان عظيماً حقاً، وعظمته شاملة وعالمية حتى أنه لم يكن من السهل لأي بابا، مهما كان قوياً أن يقاوم سلطته، ولكن نفوذ جستنيان لم يدم بعد موته، فعندما

توفي عام 565م توفيت معه الإمبراطورية الرومانية أيضاً، ولكن الإمبراطورية البيزنطية استمرت في الحياة، هذا ويمكننا أن نقول بشكل تهكمي لا يخلو من سخرية أن البابا أصبح بالحقيقة وريث الإمبراطور الروماني، فقد كان هنالك ضرورة قصوى لوجود رجل قوي مستقل لتأكيد سلطة البابا ومركزه، وتمهيد الطريق لأولئك البابوات الأقوياء في العصور الوسطى، وما بعدها، وقد وجدت الكنيسة ضالتها المنشودة في غريغوري الأول (590 ـ 604م)، وهو رجل ذو مقدرة فوق العادية، وكان ينتمي إلى أسرة رومانية، وحفيد أسقفين، ومما زاد في تأثيره وأهميته كونه واحداً من أقارب بندكت، مؤسس دير جبل كازينو، وقد عرفته الأجيال التالية باسم القديس غريغوري الكبير.

لقد كان انتخاب البابا أمراً بسيطاً في القرن السادس، فقد قرر ثيودريك وهو ملك القوط الشرقيين الآريوسيين، أن يكون الانتخاب بإجماع آراء الاكليروس، وشعب روما، وبعدها بتثبيت الإمبراطور، (وحيث ستشغل مسألة تطور طريقة الانتخاب حيزاً هاماً في بحثنا هذا، فإننا سنعمد فيما بعد لو صف تفاصيل انتخاب البابوات)، وعلى هذا الأساس وبشكل عفوي يخلو من كل أبهة أو تكلف أصبح غريغوري ابن أحد أعضاء مجلس الشيوخ، والذي تمتلك أسرته كثيراً من القرى والإقطاعيات في روما، وصقلية، والذي شغل وظائف هامة في روما الوثنية والمسيحية، أصبح هذا الرجل الحبر الأعظم في روما.

لقد كانت ثقافة غريغوري ثقافة رجل نبيل، وقد ظل رومانياً طيلة حياته، وقد تكلم اللاتينية، ورفض أن يتعلم اللغة اليونانية خلال السنوات الست التي قضاها في القسطنطينية العاصمة الإغريقية، ولهذا فليس من الغريب أن يدعى رجل مثله بخلفياته وبعلاقاته الأسروية المعروفة، وثروته ومقدرته الإدارية المدهشة إلى تولي أرفع منصب في المدينة، ففي سن الثلاثين، نال وظيفة المشرف المدني العام، وهو منصب سام كان أيام روما القديمة قد احتفظ به في العصور الوسطى، وشغل غريغوري هذا المنصب بقامته المؤثرة وجبهته العالية، وعينيه السوداويتين ولحيته الشقراء المسترسلة، وحمل أعباء هذا المنصب بكل جلال وكرامة، وبعد مرور سنة على تعيينه في منصب المشرف، توفي والده، وعندها اعتزل الوظيفة وأصبح

راهباً، ويمكن أن نعزو سبب نزوعه إلى الرهبنة شدة حزنه على والده، وربما التأثير الشخصي لقريبه بندكت، وقد سلم بيته الموروث من أبويه للبندكتيين، ونذر نفسه راهباً في المبنى نفسه، الذي أصبح يدعي دير القديس أندراوس، على التلة الجوليانية، وهناك عاش حياة كلها تقى وصلوات وصيام، وتأمل، وكتابات، ففي هذا الدير صنف كتبه الأولى، وكان أولها حول سفر أيوب، وباقيها حول أسفار من العهد القديم منها نشيد الإنشاد، وبالتدريج بدأ يتخلى عن الأملاك التي ورثها، ووضع جميع أملاكه الكبيرة التي ورثها في صقلية تحت تصرف الإخوة البندكتيين الذين بنوا ستة أديرة هناك على نفقته الخاصة، وبعد أن انتسبت والدته للرهبنة، والتحقت به في دير القديس اندراوس لم يبق لديه أية مسؤوليات عائلية، ولكن القدر لم يتركه بسلام، فعندما عينه البابا بندكت الأول (575 ـ 579م) ليكون واحداً من سبعة شمامسة مسؤولين عن الأقاليم الكنسية في روما، لم يعد لديه أي خيار سوى أن يطيع لأن هدفه في حياته كان: القيام بأية خدمة على الوجه الأكمل (حتى أنه عندما استلم منصب البابوية، رفض الألقاب جميعها واتخذ لنفسه لقب خادم الرب) وقبل مرة ثانية منصب ابو كريزاريوس (منصب يشبه منصب ممثل البابا) في القسطنطينية، وهناك تعرف على الشؤون السياسية للدولة، وقد أفادته هذه المهارات الدبلوماسية التي اكتسبها في العاصمة البيزنطية بشكل جيد في السنوات القادمة، ولدى رجوعه إلى روما سر كثيراً عندما علم أنه قد عين رئيساً لدير القديس اندراوس، فقد فكر أنه قد عاد أخيراً بعد طول الانتظار إلى قواعده كراهب بسيط مرة ثانية.

وفي هذا الوقت كانت روما تعاني من كثير من المشاكل والاضطرابات، فقد كانت مهددة بالغزوات البربرية على الدوام، وزاد الطين بلة فيضانات نهر التيبر التي حولت المنطقة المجاورة إلى مستنقعات، وكذلك الأوبئة والطاعون الذي قضى على الألوف وحدث أنه في أثناء انتشار الطاعون الدبلي[1] أن كان غريغوري يقود موكباً من الرهبان والاكليروس والمواطنين خلال شوارع روما، وهم يتجهون إلى كنيسة سانتا ماريا وأجوريا

(1) الدبل: ورم في الغدة الليمفاوية.

في الحي الرطب قرب النهر، وعندما مروا بجانب الجثث السوداء من ضحايا الطاعون الملقاة في الشوارع إذا بالروائح النتنة التي تحمل الموت تدخل في خياشيم السائرين المؤمنين وأصوات المرضى والمكروبين ترن في آذانهم وشق الموكب طريقه إلى مقبرة هدريانوس المهيبة، وهنالك وصف أسطوري للحادث: قيل ما أن مر الموكب حتى ظهر شبح ملاك، يمكن رؤيته وهو يرفرف فوق العربة البرونزية التي كانت حينذاك تزين قمة النصب، وفي تلك الساعة أغمد الملاك سيفه وهي إشارة فسرت أنه قد لقي عدد كاف من الناس حتفهم وانتهى الأمر، وتقول القصة إن الطاعون قد توقف فجأة بشكل معجزة، ومن ذلك الوقت أصبح النصب يدعى (كاستل سانت آنجيلو) أي قلعة الملاك المقدس، وفي هذه الأيام يمكن رؤية تمثال الملاك على هذا النصب.

لقد كان فلاجيوس من جملة ضحايا الطاعون، وليس بغريب أن انتخب غريغوري خلفاً له بإجماع أصوات الاكليروس والشعب وذلك طبقاً للعادة السائدة، ولكن موافقة الإمبراطور الشرقي على هذا الانتخاب قد أعاقها لا بل حتى أوقفها، التماس غريغوري من الإمبراطور وإصراره على ألا يوافق على هذا الانتخاب، وهذا حادث فريد في تاريخ البابوية، إنما أخيراً أتت الموافقة بعد سبعة أشهر وأصبح غريغوري أسقف روما في 3 أيلول عام 590م.

كان غريغوري في الخمسين من عمره في تلك الآونة، وأصبح ضعيف الجسم، حتى عندما كان راهباً كان يقاسي من مرض لا يعرف سببه في معدته سبب له آلاماً لا تطاق، وقد قضى سنتين من الأربعة عشر عاماً التي قضاها في منصب البابوية في الفراش، ولكن كان لديه أمور أهم بكثير من العناية بصحته، فهو الذي أرسى قواعد البابوية، وهو الذي جعل البابا حاكم روما الفعلي، ووريث حاكم العالم الغربي، وكما كان في يوم من الأيام يشغل منصب المشرف في روما، أصبح الآن المشرف على العالم المسيحي الكاثوليكي بأسره، وكان يصر على اتباع البساطة والتقشف، وبالوقت نفسه كان قاسياً في الإشراف على الحياة الخاصة للاكليروس، والتقيد بمنع

إطلاق العنان للجنس، ولم يرحم أحداً في هذا المجال، ثم أخذ يحد من نفقات رجال الاكليروس وجشعهم، وتبذير الأسقفيات، وكان صدره يضيق لدى أقل إساءة استعمال للوظائف الكنسية، التي كان غيوراً على مصالحها، ولما كان عالماً بشؤون الإدارة المالية من خلال تصرفه بأموال والديه وأملاكهما، أصر على جرد الأملاك والأموال التي كانت تمتلكها كل كنيسة، وكل أسقفية، من كؤوس القربان، إلى الشمعدانات، إلى القرى والأراضي التي ملكتها كل كنيسة، وكانت أكبر ممتلكات الكنيسة في صقلية، ولكن أملاك الكنيسة انتشرت في جميع أنحاء المعمورة، بما فيها أملاك كثيرة في روما وفي أجزاء إيطاليا الأخرى، وفي غاليا وإسبانيا وأفريقيا وقد قدر دخل الكوريا الرومانية بمليوني دولار سنوياً، وهو مبلغ لا يكاد يصدق بالنسبة للقرن السادس، أما غريغوري فكان يعتقد أن النقود الموجودة يجب أن تصرف، وإذا كان هنالك ما ينتقد في إدارته المالية فهو ضخامة المبالغ التي كان يصرفها على البر والإحسان، إذ أصر أن تصرف الأموال لمصلحة الفقراء والمعوزين، فقد شوهدت العربات البابوية في كل أبرشية مسيحية في جميع أنحاء العالم وهي توزع الطعام والكساء على المحتاجين، فالبابا راهب بندكتي، والإحسان قاعدة أساسية في النظام البندكتي، وقد اهتم أيضاً بإنتاج المواد الغذائية في الأملاك البابوية، وكان القمح يشحن بالسفن من صقلية ويخزن بعناية في صوامع الحبوب البابوية للاستعمال في حالة حدوث مجاعات أو أي جائحات أخرى.

ومع أن غريغوري الأول، كان يعد نفسه خادماً بإخلاص لعبيد الرب، إلا أنه كان أيضاً سيد هؤلاء العبيد، وكان موقفه تجاه كرامة مركزه، موقف المناضل الذي لا تلين قناته، إذ عندما حاول بطريرك القسطنطينية أن يطلق على نفسه اسم البطريرك المسكوني، رد غريغوري عليه بحدة فقال: لا يجوز لأحد أن يدعى مسكونياً (أي ذي نفوذ يمتد إلى جميع أنحاء الأرض المسكونة) سوى أسقف روما، وقد ناضل ضد الأساقفة والإمبراطور لقاء كل خرق أو انتهاك لامتيازات البابا، وهكذا لم يكن رئيس

الكنيسة فقط بل أمير الدولة والأقاليم، إذ أجرى المفاوضات مع الصديق والعدو على السواء، وقد أقام معاهدة صلح مع اللومبارديين عندما قرروا نهب روما، ودفع لهم جزية سنوية مقدارها خمسمائة قطعة ذهبية، كانت تدفع من الخزينة البابوية، واستعمل القوة العسكرية عندما كان يرى ذلك مناسباً، وكان أول بابا يتولى منصب الجنرال العسكري، بالإضافة إلى المنظم الإداري، ثم النائب الأول للمسيح، وهذه عبارة عن مجموعة مذهلة من الوظائف، ولقد قيل إنه عندما ترأس دير القديس اندراوس فكر في تنظيم بعثة تبشيرية إلى بريطانيا، حيث كانت المسيحية الايرلندية (المقاومة للرومانية) قد شقت طريقها إلى تلك البلاد، لذلك أرسل أوغسطين ـ وكان هذا قد أصبح رئيس دير القديس اندراوس ـ ومعه جماعة مؤلفة من أربعين راهباً في رحلة جيدة التنظيم إلى بريطانيا، وكان معهم قوة عسكرية لحمايتهم على طول الطريق، وكانت مهمتهم الفوز بتأييد الملك والنبلاء والشعب للكنيسة الرومانية، وفي عام 597 نجحت هذه البعثة، إذ اعتنق الملك ايشيلبرت ومعه عشرة آلاف من أتباعه الدين المسيحي، وهكذا أصبح أوغسطين أول رئيس أساقفة لكانتربري، ثم تلا ذلك تحول مقاطعة ايسكس إلى الدين المسيحي بعد بضع سنوات، وبسبب الاهتمامات الخاصة في هذا الكتاب نجد أنه من الأهمية بمكان أن نذكر أنه على الرغم من أن غريغوري عامل الوثنيين بقسوة شديدة وأعد العدة لصد أي نوع من التدخلات والهجومات الوثنية، إلا أنه كان متسامحاً ولين العريكة مع اليهود، وإن قراراته الشهيرة بالنسبة لليهود كانت حجر الزاوية في السياسة البابوية التي سوف نعالجها في مكان من هذا الكتاب فيما بعد، وعندما بلغه نبأ عزم ملك القوط الغربيين في إسبانيا على إعطاء الخيار لليهود في بلاده إما أن يعتنقوا المذهب الكاثوليكي، أو أن يطردوا من البلاد، عارض البابا ذلك، ففي غاليه وصقلية غالباً ما أجبر اليهود على اعتناق المسيحية، والرسالة التالية التي كان سبب إرسالها الحالة في غاليا (فرنسا) تشرح موقف البابا وميوله: «حزيران 591 من غريغوري إلى فرجيليوس أسقف (أرليس) وإلى ثيودوروس أسقف مارسيليا في بلاد الغال، أقول: إنه على الرغم

من أنني لم أجد حتى الآن الوقت المناسب ولا الشخص المناسب للكتابة لإخوتكم، للرد على ما أرسلتموه من التحيات، والآن إنني أشعر بأنني أستطيع أن أحل نفسي مما هو واجب تجاه الحب والعلاقات الأخوية، وأن أنوه بالشكاوى التي قدمها بعض الأشخاص، والتي وصلت إلى مسامعنا بخصوص الطريقة التي يجب أن يتم بها تخليص أرواح الخاطئين.

إن هنالك كثيرين من الناس من أتباع الديانة اليهودية يسكنون في إقليمكم، ويرحلون من وقت لآخر لقضاء شؤون مختلفة من الأعمال إلى منطقة مرسيليا، وهؤلاء قد أخبرونا أن كثيراً من اليهود المقيمين في تلك الأنحاء قد أجبروا على التعميد بالقوة، وليس بالإقناع والتبشير، والآن إنني أعد أن النوايا في مثل هذه الحالات جديرة بالاهتمام، وأسمح لنفسي بالقول إنها تصدر عن الحب الخالص للرب، ولكنني أخشى أن تكون هذه النية، ما لم يرافقها تسويغ مناسب بواسطة فقرة من فقرات الكتاب المقدس، إما أن تخلو من أية مجهودات مثمرة، وإما (لا سمح الله) سوف تكون سبباً في ضياع أرواح نحن حريصون على إنقاذها، لأنه إذا ما جلب أحدهم إلى جرن المعمودية بالقوة، وبدون إقناع بلسان حلو، فإنه سوف يعود إلى وثنيته حتماً، ويموت في حالة أسوأ من الحالة التي ولد فيها».

توفي غريغوري في 12 آذار عام 604م وهو في الرابعة والستين من العمر، ودفن في رواق بازليكا القديس بطرس، وأخيراً نقل جثمانه إلى أسفل مذبح كليمنت الثامن، وقد عُدَّ هو ووالدته من الأبرار الذين سوف ينعمون بالخلود، وذكر اسماءهما في تقويم الكنيسة الكاثوليكية، ذلك أنه كان أول بابا حقيقي، فهو أول من أجبر العالم على الاعتراف بالأملاك البابوية، والنظر إليها على أنها دولة بابوية على رأسها البابا بمثابة ملك لها، وهو الذي حدد الحقوق والواجبات البابوية داخل الكنيسة وخارجها، وكذلك وضع الأسس التي تحدد العلاقات المتبادلة بين البابا والإمبراطور، وأسس أيضاً التقاليد البابوية الأرستقراطية التي ظلت سارية المفعول، وقلما أوقف العمل بها.

وبعد أقل من عقدين من وفاة غريغوري تعرضت المسيحية إلى أقصى نوع من أنواع الاختبار، وفي بادئ الأمر استطاعت الكنيسة أن تعلو الموجة ولكن بعد أن أصيبت بخسائر فادحة في الأراضي والثروات والهيمنة الدينية، وقد تحول التيار لمصلحة الكنيسة بمحض الصدفة، فلولا ذلك الاختراع الجديد للقذائف التي دعيت بالنار الإغريقية التي سببت انسحاب الأسطول العربي الذي كان على وشك الاستيلاء على القسطنطينية[1] لكان من المؤكد أن يصبح العالم الغربي عالماً مسلماً بدلاً من أن يكون مسيحياً.

فبعد وفاة غريغوري لم تعد المسيحية القوة الكافية لمقاومة تلك الهجمات الحماسية التي أتت من مكان لم يتوقعه أحد، وهو شبه جزيرة العرب، الهاجعة المنسية تقريباً، فهناك ظهر في عام 622م رجل مجهول كلياً، وهو من قبيلة الهاشميين العرب المكيين، وقد هاجر محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يكن معه سوى حفنة من الأتباع، وكان قد احتك بعدد كبير من اليهود المقيمين في الجزيرة العربية، وبعدد قليل من المسيحيين الذين أقنعوه باتباع مذهب التوحيد، أي الإيمان بإله واحد فقط، وسرعان ما بدأ يهدي قومه إلى دينه الجديد المؤسس على المبادئ والعادات والتقاليد اليهودية المسيحية، كالصلاة والصيام، والصدقات، واليوم الآخر والاعتراف ببعض الأنبياء

---

(1) يشير المؤلف هنا إلى إخفاق العرب في احتلال القسطنطينية، ومعلوم أن هذه العاصمة حاصرها العرب لأول مرة أيام معاوية بن أبي سفيان بجيش قاده يزيد بن معاوية، والمرة الثانية أيام سليمان بن عبد الملك بن مروان، بجيش قاده مسلمة بن عبد الملك ويعزو الإخفاق إلى النار الإغريقية التي سببت دمار بعض قطع الأسطول، والنار الإغريقية: مواد ملتهبة صنعها مهندس من أصل سوري، كانت تستمر بالالتهاب أثناء سقوطها على سطح الماء، ومن المؤكد علمياً أن النار الإغريقية لم تكن السبب الوحيد لإخفاق العرب، بل ينبغي أن يضاف إلى هذا حصانة العاصمة البيزنطية ومتانة أسوارها، وأن العرب حاصروها من الجانب الآسيوي فقط وظلت طليقة من الجانب الأوروبي، وجاء حصار هذه العاصمة والعرب لم يحتلوا بعد آسيا الصغرى، لذلك هددت طرق مواصلات جيوشهم، إلى غير ذلك من أمور، والذي ينبغي التنبه إليه هنا أن مسألة الفتح العسكري شيء، ومسألة اعتناق الإسلام من قبل سكان البلاد المفتوحة يبقى أمر آخر، فهاهم العثمانيون فتحوا أوروبة الشرقية وحكموها لمدة طويلة، لكن سكانها ظلوا على حالهم بشكل عام، والشيء ذاته ينطبق على الهند، والمثير للانتباه أن المؤلف يقدم بعض الأفكار والتفاسير التاريخية البالية، التي باتت أدنى من أن يفكر حتى بقراءتها أو الرد عليها.

والرسل المختارين، مثل إبراهيم، وموسى، وعيسى، وهذا المزيج المختلط والمشوش، والثانوي المكانة الذي لا يصلح لأن يكون علاجاً ولا يكاد يكفي لتغذية طائفة قليلة، شكل على الرغم من ذلك أساساً لدين عالمي هو دين الإسلام، الدين الذي يعترف بوجود الله القادر[1] الذي ليس له إلا رسول واحد وهو محمد رسول الله، وقد تضافرت جهود هذا الدين الجديد البسيط، الذي هيء ليناسب ويلبي حاجات العرب في الصحارى والقرى والمدن، مع النجاحات العسكرية اللامعة التي لا تكاد تصدق، مما جعل الملايين من العرب يتقبلونه عن طيبة خاطر، والحقيقة أنه لم يحرز أي نبي من الأنبياء النجاح الذي أحرزه محمد صلى الله عليه وسلم، ولم تستطع اليهودية ولا المسيحية أن تدعي إنجاز مثل تلك المنجزات التي قام بها الإسلام في ذلك الزمن القصير، فقد خضع بعد أقل من قرن قسم عظيم من العالم لحكم الله، وإن إلقاء نظرة خاطفة على الخارطة في القرن الثامن تجعل الإنسان يفكر بالنتائج الممكنة التي كان الإسلام سوف يؤثر بها على حضارة الغرب، وإذا تفحص الإنسان الدور الذي قام به العرب في تطوير وتحسين الثقافة العالمية، وموقفهم المتسامح المستنير تجاه الأقليات عندها سوف يشعر بالبهجة والسرور.

عندما توفي النبي محمد صلى الله عليه وسلم عام 632م كان دينه قد تأسس على أرض صلبة، فقد قبلت به الجزيرة العربية بشكل إجماعي واحترمته، ففي زمن قصير استولى خلفاؤه على: العراق، وسورية، وما بين النهرين، وإيران، ومصر، وشمال أفريقية، وحولوها جميعاً إلى الإسلام، ويعد سقوط المغرب الأقصى عبر العرب البحر إلى

---

(1) يتشابه هذا العرض حول الإسلام مع كتابات العصور الوسطى، ويتضمن أفكاراً تخلت عنها حتى الفاتيكان، وهذه المعلومات تدل على جهل فاضح، فمن المقرر علمياً أن الإسلام هو أول دين في التاريخ جاء بنظرية أممية كاملة، وأقل ما يمكن قوله أنه لا يحوي النظرة المغلقة والتزييف الواضح في اليهودية، ولم يقع في بؤرة مشاكل التثليث التي مزقت الكنيسة، فيه عبادات ونظام كامل للحياة، ونظرة شمولية راسخة المعالم وواضحة الرؤى، ولا شك أن تعصب المؤلف وعدوانيته واستغباءه للقارئ الأمريكي والأوروبي بشكل عام جعله يكتب ما كتبه هنا حول قيام الإسلام وحياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، عدا عن الأخطاء التاريخية فسنة 622 سنة الهجرة لا سنة البعثة.

إسبانيا حيث قهروا القوط عام 711م، وفتحوا البلاد بأجمعها تقريباً، وقد كادوا يستولون على فرنسا، لولا مقاومة شارل مارتل الذي كسرهم في معركة بواتييه عام 738[1]، وحيث كان هنالك مسيحيون أو يهود في طريقهم، كان المسلمون يسمحون لهم بحرية العبادة بسلام ما داموا يدفعون الجزية المفروضة على غير المؤمنين، إذ أن تحول هؤلاء إلى الإسلام لم يكن أمراً مربحاً أو مفيداً بالنسبة للحكام المسلمين، ولكن السكان الوطنيين الذين كانوا قد طوروا السمة الخاصة للإيمان المسيحي في أفريقيا، هؤلاء السكان استسلموا للإسلام بسرعة، فالإسلام هو دين العرب، وقد وجد لأجل العرب ووفق أمزجتهم الخاصة النوعية، وتلك النزعة من الكبرياء، واحترام النفس فيهم وطريقتهم في النظر إلى الأشياء، فلهذا يجب أن نعد الإسلام دينهم فقط، فالتحول إلى المسيحية كان عملية مصطنعة بالنسبة إليهم لا تزيد عمقاً على بشرة الجلد، أما اعتناق دين العرب فهو سهل جداً، وقد قامت اللغة والعادات القبلية البدوية بدور هام، فالإسلام هو دين الذي ينطق بلغة العرب، والقرآن يتحدث بحماس باللغة العربية، فمنذ اليوم الذي توفي به محمد صلى الله عليه وسلم حتى زمن معركة بواتييه، مضى قرن واحد وست سنوات، ولكن هذه المدة شهدت دون شك أعظم التغييرات الثورية في تاريخ العالم.

لقد كان ظهور الإسلام كارثة بالنسبة للمسيحية، فقد وقع قسم كبير من أملاك الكنيسة تحت قبضة المسلمين غنيمة سائغة، فقد وقعت ثلاثمائة وخمس وتسعون بطركية تحت الحكم الإسلامي، ومنها بطركيات هامة مثل بطركية القدس، وأنطاكية، وقرطاج وإذا قارنا مدى انتشار المسيحية مع مدى الفتوحات العربية نجد أن المسيحية أصبحت أقلية ضئيلة واقعة بين بحر الإسلام اللجب في الجنوب، وبين تلك الشعوب الأوروبية الشمالية الأوروبية غير المثقفة وغير المتحضرة، وفوق كل شيء غير المتحولة إلى الديانة المسيحية،

---

(1) لم يهزم العرب في معركة بواتييه، ولم ينتصروا، والذي حدث أنهم انسحبوا عشية مقتل قائدهم عبد الرحمن الغافقي، ومعركة بواتييه لم تغلق أوروبا الغربية في وجه العرب فهم توغلوا إلى داخلها، واحتلوا جزائر البحر الأبيض المتوسط مثل قبرص، كريت، صقلية، حتى روما نفسها احتلوها لمدة وجيزة، وأعود هنا للتأكيد على مسألة أن الفتح العسكري أمر واعتناق الإسلام أمر آخر، ذلك أن الإسلام لم يجبر أحداً على التحول إليه.

ولما كان العرب ينقصهم التدريب على المهارات الإدارية والحكم، لذلك استخدموا كثيراً من اليهود والمسيحيين لملء المراكز الإدارية في الولايات التي أصبحت الآن ولايات عربية.

في هذه المرحلة المبكرة من حياة القرون الوسطى خلق العرب عصراً من النهضة الثقافية سبقت النهضة الإيطالية حوالي ستمائة عام تقريباً، فمن بغداد حتى قرطبة، ازدهرت العلوم والفنون على مستوى واسع عال، فقد طور العرب حضارة ذات أناقة وكياسة، وصقل في كل من طرق المعيشة والثقافة بعد أن كانوا قد ربوا على قرض الشعر والمواهب الأولية وقص القصص، وهي صفة سائدة من صفات سكان الصحراء، أجادها حداة الإبل والتجار، وقد أسس العرب هؤلاء كثيراً من المدارس العالية (الأكاديميات) والمكتبات في جميع أنحاء إمبراطوريتهم، والحقيقة أن الغرب مدين لهذه المؤسسات العربية التي نقلت له الأدب اليوناني الكلاسيكي من خلال الترجمات العربية، هذا وقد سمح العرب المسلمون لليهود والمسيحيين بالاشتراك في هذه المؤسسات بشكل عرضي، وهذا شجع كتابة عدد كبير من الكتب اليهودية والمسيحية باللغة العربية، وبالعكس حتى وقت متأخر من العصور الوسطى، كان العلماء العرب يقومون بالتدريس في جامعات بافا، وباريس، وأكسفورد المسيحية، ولقد ازدهر فن العمارة في الدولة العربية منذ أول نشوئها، فجامع عمر في القدس وكثير من الأبنية الدينية والعلمانية نافست، لا بل تفوقت على الكنائس البيزنطية والرومانية والقصور، فالدين الذي كان قد أعلن حرباً مقدسة ولم يجد حرجاً في إقحام السيف لنصرة الدعوة، هذا الدين قد تطور الآن وتطور منه مجتمع جديد متحضر لطيف بعكس المجتمع المسيحي الخشن، الفظ، كما كان في العصور الوسطى (وقد استفاد هذا المجتمع كثيراً من التراث الإسلامي)، ولقد كانت الفتوحات العربية- مع ما اتسمت به من إراقة الدماء[1] - لا تقارن بالوحشية التي ظهرت في مذابح الفاندال والقوط الذين اجتاحوا ودمروا وخربوا كثيراً من الأراضي الأوروبية، فلا عجب إذ أن نرى

---

(1) كذا فمع محاولة الظهور بالإنصاف، تحدث عن إراقة دماء، فأية إراقة دماء هذه، والتاريخ لم يعرف فاتحاً أرحم من العرب، كل ما في الأمر أن العرب قاتلوا الجيوش العدوة حتى هزموها، ولم يتعرضوا للشعوب إلا بالخير والإنصاف، لأنهم خرجوا لتحريرها.

البيزنطيين الإغريق في الإمبراطورية الشرقية والمسلمين في إسبانيا وفي بغداد ينظرون نظرة ازدراء واحتقار للمسيحيين اللاتين الذين جعلوا جميع الناس يشمئزون من أساليبهم ومعاملتهم الخشنة الفظة، لقد افتقدت البابوية ذلك الدعم الذي تمتعت به تحت حكم قسطنطين وخلفائه، وهكذا اتسع الخرق بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية قرناً بعد قرن، ولم يظهر أي بابا كفؤ خلال هذه المدة عدا نقولا الأول (858 ـ 867م)، ولهذا بدأت سلطة الأساقفة المحليين تزداد بشكل محتم تبعاً لنقص العائلات النبيلة في روما، التي مارست التسلط على البابوية حتى القرن الثاني عشر، وكان كل ما تحتاجه البابوية رجلاً قوياً جديداً قادراً على إمدادها بالدعم الذي تمتعت به أيام الإمبراطورية الرومانية المتأخرة.

وأخيراً أتت هذه الحماية بشخص شارلمان ملك الفرنجة، فلقد كان إيجاد الإمبراطورية الرومانية المقدسة تحت وصاية شارلمان حدثاً وظاهرة لها أهميتها وخطورتها بالنسبة إلى العرش البابوي في روما، وبالوقت نفسه أصبحت أملاً ومشكلة، وقد قدر لهذه الإمبراطورية الرومانية المقدسة أن تعيش وتستمر حتى القرن التاسع عشر، وابتداء من تتويج شارلمان في روما أصبحت العلاقة بين البابا والإمبراطور الموضوع الرئيس في تاريخ الكنيسة في القرون الوسطى.

وأصبحت إيطاليا الآن تحت قبضة اللومبارديين، الذين كانوا قد أتوا من الشمال واستقروا في أرض أنهكها الطاعون والمجاعات وحروب القوط، وبمرور الزمن اتخذ اللومبارديون اللغة الإيطالية لغة تداولهم، والكاثوليكية الرومانية ديناً لهم، مع أن السكان الوطنيين الذين اعتادوا على الغزوات عدوهم غرباء، وقد كان في إيطاليا ثلاث مدن رئيسة وهي: روما مركز دولة البابا، ورافنا عاصمة البيزنطيين، وبافيا: عاصمة اللومبارديين، نجد البيزنطيين لا يسلمون بهذا ولا يتركون رافنا ولا فينيسيا (البندقية)، ولا نابولي، لهذا لم يهتموا كثيراً ببقية إيطاليا، وكذلك فإن المسيحية البيزنطية ما لبث أن ازدادت بعداً عن إيطاليا، وبعد بضع مئات من السنين حصل الانفصال بين الكنيستين الرومانية والشرقية، وأثناء ذلك نمت القوى العسكرية والسياسية الفتية في شمال أوربا،

وقد أثبتت هذه وجودها في بواتييه، عندما حالت جيوش شارل مارتل دون احتلال الجيوش العربية لأوروبا، وكان هذا الانتصار حاسماً بالنسبة لمصير وحضارة أوروبا، مما سبب نمو وزيادة أهمية الفرنجة كقوة ضاربة يحسب حسابها، وبعد موت الملك الفرنجي عام 768م ترك الإمبراطورية النامية تحت تصرف ولديه كارلومان، وشارل وكلاهما كان متزوجاً زواجاً لمصالح سياسية من بنات ديزيديوس ملك اللومبارد، ولكن روابط المصاهرة لم تكن قوية لتتغلب على طموحات الفرنجة السياسية، إذ بعد وفاة كارلومان في سن الثالثة والثلاثين طلق أخوه - شارل - الذي أصبح مطلق القوة - زوجته اللومباردية، وتزوج من هلديجارد الألمانية الأصل، ولهذا لم يعد يمت إلى ديزيديوس بصلة القربى، وهكذا تحركت طموحاته تجاه إيطاليا.

ومن سخرية القدر أن نجد طموحات شارل قد أمنها ديزيديوس نفسه عندما قرر هذا الزحف نحو روما نفسها، وكان يأمل أن يخلع البابا، ولقد هدد البابا أدريان الأول 772م اللومبارديين بالحرمان (وهي أول مرة يستعمل بها الحرمان كسلاح في يد السلطة الدينية ضد السلطة الزمنية)، وبعدها طلب جمع المليشيا الرومانية، ثم استنجد بملك الفرنجة شارل، وأرسل له مبعوثاً بابوياً، وشارل هذا هو الذي سيعرف باسم شارلمان، وقد كان شديد الرغبة بمساعدة البابا لأن تلبية طلبه بصفته القوة الكنسية، فرصة سانحة لدعم خطة شارلمان للتوسع، وبعد حصار دام تسعة أشهر استولى على بافيا وأعلن نفسه ملك لومبارديا، وفي 2 نيسان عام 774 وصل إلى روما، وكان وصوله يوماً تاريخياً، فقد كانت البابوية تنتظر هذا التحالف بفارغ الصبر، فهو الذي سوف يعيد تنظيم العالم المسكوني الكنسي «Iclaseun» الذي كان تحت سلطة البابا في جميع الشؤون الدينية والكنسية، وتحت سلطة الإمبراطور في جميع الشؤون الدنيوية، فعرش الإمبراطور بقي خالياً لمدة طويلة من الزمن.

لم يطلب شارلمان الكثير لنفسه، وعلى الأقل، في أول الأمر بالذات، فقد وسع أملاك البابا وزاد عليها ثم وعد بحماية البابا، ولم يناقش حتى حق الإمبراطور القديم

بتثبيت انتخاب البابا، إلا أن شارلمان طلب أن يمنح حق سماع الاستغاثات والمناشدات التي ترد له من النبلاء الرومان بما فيه تلك المناشدات التي توجه ضد البابا نفسه، وقد كان لقب شارلمان هو ملك الفرنجة واللومبارديين، وأحد أشراف روما، ولهذا أصبحت إيطاليا جزءاً من الإمبراطورية الكارولنجية بشكل فعلي، وبعد إخضاع الشمال في السنوات التالية أصبح شارلمان حاكماً لجزء لا بأس به من أوروبا يمتد من الحدود الإسبانية في جنوب فرنسا حتى أملاك القبائل السكسونية، والتشيكيين، والكرواتيين وبالإضافة إلى ذلك حدثت مفاوضات مع البيزنطيين بخصوص وضع البندقية وساحل دالماشيا، وهذه المفاوضات خففت من إمكانية حدوث مشاكل وتهديدات متصلة بين الطرفين في المستقبل، ونتيجة لهذه التطورات وضح وضع البابا تماماً.

توفي البابا أدريان أول عام 795م، وانتخب بابا جديد هو ليو الثالث (795 ـ 816م)، ولكن نظراً للفوضى المستحكمة في روما في ذلك الزمن، ووضع البابوية المقلقل وغير المستقر، قام مؤيدو أدريان المتوفى بخطف البابا الجديد عندما وجدوا أنه يختلف في سياسته عن البابا المتوفى ونقلوه إلى دير القديس (إيرازموس) وعاملوه معاملة في غاية الوحشية والسوء، بحيث أصبح عاجزاً عن النطق والرؤية تقريباً، ولكنه عمد إلى الهرب، وبعد رحلة محفوفة بالأخطار، وصل إلى قلعة شارلمان في بادربون Baderboin وقد اشتد غضب الإمبراطور عند سماعه ما حدث للبابا، وتعهد بحمايته، ودخل إلى روما على رأس جيش، عندها بدل خصوم البابا (ليو) موقفهم المبني على العنف، واتخذوا موقفاً جديداً أساسه المطالبة بالاحتكام، وذلك الحق الذي كان شارلمان قد أمنه لهم، ووعد به كما ذكرنا آنفاً، بعدها عقد مجلس اتهم خصوم ليو البابا باللا أخلاقية واليمين الكاذب، والحنث باليمين، وعندما أشار أنصار ليو إلى المبدأ القائل بعدم جواز محاكمة البابا، من قبل أية سلطة مادام أنه هو ممثل المسيح، نهض ليو بنفسه وبحركة درامية أمسك بالكتاب المقدس وأقسم أنه بريء، وهكذا انتهت المحاكمة ورضي الفريقان بهذا الوضع الذي إن دل على شيء فهو يدل على خضوع البابا، مع أنه لم تتخذ أية إجراءات رسمية في هذا المجال، وعد هذا الحل حلاً بارعاً بديعاً.

وبعد سنتين حدث حادث درامي آخر كانت له نتائجه العميقة في المستقبل بالنسبة لتاريخ البابوية وقد تم هذا الحدث أثناء القداس الإلهي في بازليكا القديس بطرس في روما، حالما ركع الإمبراطور أمام المذبح وهو يبدو غارقاً في صلاته إذا بالبابا يتقدم منه ويضع التاج الإمبراطوري على رأسه، ومع أنه من الصعب أن نصدق أن شارلمان لم يكن على علم مسبق بهذه المناورة السياسية، إلا أنه يبدو أن المؤرخين متفقون أن هذا العمل كان مفاجأة لشارلمان، وسواء أكان مفاجأة أم لا، فالحقيقة أن ملك بلاد الفرنجة قد أصبح إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة، وهكذا حيا الأساقفة والنبلاء شارلمان بحماس، وهنؤوه وهم يشهدون هذا المشهد عن كثب، وعليه أعلن على الملأ: «إن شارل أوغسطوس المتوج من قبل الرب قد أصبح الإمبراطور العظيم المسالم للرومان، وليعيش حياة ملكية بالنصر والظفر»، وهكذا أصبح شارلمان رجل المسيحية الغربية الأوحد، ليصبح داود الجديد، والرجل الذي اختاره الرب وكرسه مرشداً لشعوب المسيحية في مدينة الله على الأرض (تاريخ كمبردج للعصور الوسطى) أما مؤرخ شارلمان الخاص فقد لقبه: «بالسيد والأب والملك والكاهن والزعيم المرشد لجميع المسيحيين»، وهكذا بزغ عصر جديد.

إذا أخذنا المقاييس الحديثة فإننا نعد شارلمان الملك الجديد مركباً من المتناقضات: حقاً إنه افتتح عصراً جديداً من العلم والمعرفة ندعوه «عصر النهضة الكارولنجية»، إلا أن هذا الإمبراطور لم يحسن القراءة حتى وقت متأخر من حياته، وحتى ذلك الوقت لم يحسن القراءة تماماً، وكان مسيحياً تقياً ورعاً، ومع ذلك فلم يكن يتورع عن استعمال السيف لتحويل الناس إلى المسيحية قسراً، وكان لين العريكة، حسن الأخلاق ومع ذلك ففي يوم واحد وفي مدينة فيردين على الالير Verden on the Aller تسبب في موت خمسة وأربعين ألف رجل سكسوني بتهمة الخيانة، ولكن بالنسبة لمقاييس العصور الوسطى، لم تعد هذه الأمور تناقضات إذ كانوا يعدون أن كل ما يصدر عن القديس والفارس والراهب والمحارب يعد مغتفراً، ومن الأمور المحترمة التي لا يجوز التصدي لها، أو حتى نقدها، أما المستنيرون حينها فكانوا يقولون إنه لأمر بغيض كريه مستهجن أن يجبر السكسون، والاسكندنافيون على قبول مذهب الصليب، ويقولون إنه كان من الأفضل اللجوء إلى المبشرين بالدين وإلى

الأتباع ذوي المصالح الذاتية ، وكان من الواجب استعمال الإقناع ، وليس القوة والوحشية في هذا السبيل ، ولكن هذه الأمور لم تكن ذات بال أو خطر بالنسبة لشارلمان ، فكما عد قسطنطين المسيحية وسيلة للمحافظة على تماسك الإمبراطورية الرومانية ، هكذا تبنى شارلمان الخطة نفسها لحل مشاكله العسكرية مع السكسونيين الجامحين العنيدين ، وذلك بتحويلهم إلى الديانة المسيحية بالقوة ، فالديانة المسيحية لم تنم وتترعرع في أوروبا في ظل جلال ووقار الرسول بطرس ، بل نمت وعظم أمرها في ميادين الحروب .

وهكذا أصبح شارلمان منظماً ممتازاً لا بل حتى مصلحاً للكنيسة (مع أن إصلاح الكنيسة كان سيأتي من داخلها ، إلا أن بداية الإصلاح بدأت على يدي شارلمان وبناءً على إصراره) ، والحقيقة أن هذا التدخل له أسباب مادية وجيهة ، فأملاك الكنيسة قد تضخمت زمن غريغوري ، وكانت بحاجة إلى أكثر من شخص واحد لإدارتها ، لذلك عمد شارلمان إلى تنصيب نفسه قيماً على ممتلكات الكنيسة ، ولكنه اصطدم بقضية أكثر إلحاحاً وهي معالجة الفساد الداخلي في الكنيسة ، إذ أن الأساقفة كان قد سمح لهم بالاستقلال الداخلي في الكنيسة ، لذلك أصبحوا شديدي الحرص على زيادة مدخولاتهم المادية ، ولقد أظهر بعضهم إسفافاً باستعمال الوسائل الفاضحة في هذا السبيل ، فقد عمد بعض الكهنة والأساقفة الجشعين لانتهاز فرص تعوزها اللياقة والحكمة وذلك باستغلال توقير وافتتان بعض الناس بآثار القديسين ، إذ اعتقدوا أن هذه الآثار قادرة على شفاء كل الأمراض ، ولهذا فقد شجع هؤلاء الكهنة العائلات الفقيرة للتضحية بكل ما يملكونه من مال لشراء ما يستطيعون شراءه من البقايا المقدسة ، وهكذا أهملت شؤون الفقراء وأصبح الكهنة يتقاضون الأموال الطائلة لقاء الخدمات الشخصية البسيطة ، دونما شفقة أو رحمة ، ووجدت أموال الصدقات للكنيسة طريقها إلى جيوب الاكليروس بدلاً من توزيعها على الفقراء ، وأهمل القداس الإلهي ، وأصبح الكهنة يتفوهون بكلمات لا معنى لها أثناء القداس ، ولم يكن أحد يبالي فيما إذا فهم المتعبدون شيئاً أو لم يفهموا ، والحقيقة أنه لما كانت الأمية متفشية بين الاكليروس لذلك أصبح من المشكوك به أن يستطيع الكثيرون منهم أن يفهموا ما يقولونه ، ولذلك ففي أثناء حكم شارلمان كان القانون الإمبراطوري

(وليس القرارات البابوية) هو الذي يصل وينفذ على جميع المستويات، وأصبحت القاعدة المتبعة تقديم الحسابات الدقيقة للبلاط، وكان على الأديرة الواسعة الثراء أن تنشئ وتبني المستشفيات، وبيوت الفقراء على نفقتها الخاصة، وكان على الاكليروس أن يساهموا في مساعدة الفقراء، وقد تجدد العمل بالقانون البندكتي الذي أهمل منذ زمن طويل، فأصبح البر والإحسان ليس من واجب العلمانيين فحسب بل واجباً على الكهنة والاكليروس أيضاً، ومهما كانت مجهودات شارلمان فعالة ومؤثرة إلا أن الكنيسة كانت لا تزال بحاجة إلى إصلاحات روحية فضلاً عن الإصلاحات الإدارية، وإلى التأكيدات الأخلاقية للقيم والفضائل المسيحية، وهذا هو الهم الأكبر الذي تنوء به كواهل رجال الكنيسة، ولقد زخر العالم المسيحي بالشواهد، فمع أن الفساد لم يكن قد تسرب إلى البابوية بعد، إلا أن ذلك سرعان ما حدث إذ أن العرش البابوي سرعان ما تورط في حالة من الفساد الأخلاقي ألقت الكنيسة على حافة الهاوية التي كانت تنتظرها، وظهر للعيان أن الكنيسة الفرنجية التي كان شارلمان حريصاً على دعمها وتقويتها، أصبحت في حالة تدعو للأسف، وقد كتب المبشر الإنكليزي بونيفيس في تقرير بعث به إلى البابا زكريا (741 ـ 752م) حول الكنيسة الفرنجية يقول: «نجد أنه في أكثر المدن سلمت الوظائف الكنسية لرجال من العلمانيين الجشعين، والكتبة الفاسقين والزناة ومديري الحانات والخمارات، الذين يعيشون حياتهم، ويتمتعون بأسلوب دنيوي صرف، ونجد بين هؤلاء بعض الشمامسة أو ما يدعون بالشمامسة الذين قضوا حياتهم منذ طفولتهم بالفسوق والزنا وعاشوا حياة مستمرة مملوءة بالقذارة، والذين وصلوا إلى مناصبهم بفضل قذارتهم، وهم مع كونهم شمامسة يحتفظون في فراشهم بأربع أو خمس محظيات مومسات أو أكثر، ومع ذلك فهم لا يخجلون ولا يتورعون أن يدعوا أنفسهم بالشمامسة، وأن يقرؤوا الإنجيل أثناء القداس، ويأتون وهم في هذه الحالة من القذارة وعدم الطهارة ويحضرون اجتماعات الإخوانيات الكهنوتية وهم يصرون على ارتكاب الذنوب نفسها فيضيفون ذنباً إلى ذنب، ومع ذلك فهم يقومون بالأعمال الكهنوتية ويدّعون القدرة على الشفاعة وتقديم القربان المقدس، والأنكى أنه في هذه الأيام ـ ويا للأسف ـ ترتفع درجاتهم يوماً بعد يوم، ويكرسون ويعلن ترفيعهم إلى مقام

الأساقفة، ولذا أتوسل إلى قداستكم أن تتفضلوا بإدانة هؤلاء وإدانة هذه الأعمال كتابة حتى يقتنع هؤلاء الخطاة ويشعروا بالخزي والعار عند استلام جوابكم الرسولي، وفوق ذلك هنالك بعض الأساقفة من هذه الزمرة الذين ينكرون صفة الزنا والفسق عن أنفسهم، إلا أنه من الثابت أنهم سكيرون ومشاغبون أو صيادون في الماء العكر، فهم رجال يقاتلون بالسلاح في المعركة، ويريقون دماء الأبرياء بأيديهم سواء أكانت ضحاياهم من المسيحيين أو الوثنيين».

أما النساء اللواتي يرتدين مسوح الراهبات فكتب بونيفيس نفسه عنهن ما يلي: «إننا سنشعر ببعض الراحة والتفريج عن العار اللاحق بنا، لو أن مجمعكم المقدس وأمراء الكنيسة أشاروا وأمروا بمنع النساء اللواتي يرتدين مسوح الراهبات من تكرار الحج إلى روما، والرجوع من هناك، لأن معظمهن يتعرضن لهتك أعراضهن، ولا يبقى إلا القليلات اللواتي يحتفظن ببكارتهن، لأنه قلما نجد أية مدينة في لومبارديا أو فرانكونيا، أو فرنسا تخلو من أعمال الغش والزنا، والعاهرات من أصل إنكليزي».

لقد كانت إصلاحات شارلمان معظمها تعتمد على القوة (مما يشبه النظام البروسي) فقد كان يطلب الإشراف التام الصارم على الحياة الخاصة للاكليروس، وأمرهم بارتداء ملابس خاصة في الكنيسة وفي الشوارع وذلك حتى يسهل ضبط أي كاهن ينغمس في الملذات في الجرم المشهود، إذا صدف وانغمس في اللذائذ المخصصة للعلمانيين، وهذا القانون له صلة بموضوع كتابنا هذا لأن نظاماً مشابهاً قد اتبع فيما بعد بالنسبة لليهود، إذ عندما لاحظت الكنيسة أثناء حكم البابا انوسنت الثالث (1198 ـ 1216) بكل استياء أن هنالك اتصالات اجتماعية جنسية بين اليهود والكفار، عمدت الكنيسة إلى ابتداع ملابس مميزة لليهود بحيث يمكن إلقاء القبض عليهم واعتقالهم بالجرم المشهود، وهكذا قرر المجمع اللاتيراني الرابع (1215م) «إنه لا يجوز ولا بحال من الأحوال أن يسمح هؤلاء لأنفسهم في المستقبل بالإفراط بالاتصالات الجنسية، ويدعون بالوقوع في خطأ من هذا النوع، ولذلك قررنا أن يخصص لباس خاص لليهود لتسهل معرفتهم على الجمهور»، وهكذا ظهر إلى الوجود الرداء الكهنوتي كما ظهرت القبعة اليهودية المدببة والشعار الأصفر.

لا نشعر أنه من الضرورة بمكان أن نصف بالتفصيل دور شارلمان في تنظيم الكنيسة وإصلاحاته، أو أن نذكر تأثير تدخلاته في الشؤون الطقوسية الكاثوليكية والموسيقا والتراتيل، فضلاً عن التعليم المسيحي في كل من المستويين الثانوي والعالي، وأصبح ما يهمنا في هذا البحث الخاص لنجعل القارئ يتعرف على المشاكل نفسها هو هذا السؤال: «لماذا قام الإمبراطور بكل هذه الأعمال ولم يقم بها البابا؟»، وهل كان حادث تتويج الإمبراطور (مع ما يبدو به من عوامل العفوية وحتى الهزلية) في ذلك اليوم الأول من أيام عيد الميلاد في كنيسة الرسول بطرس، هل كان هذا الجانب سبباً في نقل سلطة البابا ووظائفه إلى الإمبراطور الذي كان حسب الصيغة الجيلاسية هو المسؤول عن الشؤون الدنيوية فقط، وهل يا ترى خسر البابا بهذا التتويج حقوقه كرئيس وزعيم للكنيسة.

إن هذه الأسئلة ليس لها أهمية كبيرة، إذا ما حصرت في البحث في العلاقات المتبادلة بين إمبراطور معين، وهو شارلمان وبابا معين وهو ليو الثالث، فمن الواضح أن شارلمان كان ملكاً عظيماً ذا عزيمة وخيال غير عادي، وسلطة غير عادية، ومن الصحيح أيضاً أن ليو لم يكن من البابوات العظماء، فلو أن ليو توج شارلمان بعد تحليل للوضع المسيحي في القرن التاسع، ولو كان يدرك أن الإمبراطور البيزنطي لم يعد من الممكن الاعتماد عليه (فالعرش في القسطنطينية كان تحت قبضة امرأة كثيرة النزوات وهي ايرين) عندها كنا نقول: إنها ضربة معلم وإن الحبر الأعظم قد أظهر حنكته وعظمته، ولكن الحقيقة كانت أن هذا العمل إما أنه ومضة مؤقتة لا تتفق مع صفات ذلك الرجل المتوسط الذكاء والمقدرة، أو أنه من عمل وإيحاء شارلمان نفسه، ومن بنات أفكاره التي تخيلها وخطط لها ونفذها ذلك الملك العبقري العظيم.

توفي شارلمان بعد أربعة عشر عاماً من ذلك اليوم الذي توج به إمبراطوراً يوم عيد الميلاد عام 800م، وبموته انتهت الأسرة الكارولنجية عملياً، في الحقيقة إن عام زوالها الحقيقي هو عام 887م، ولكن الأعوام التي انقضت ما بين وفاة شارلمان ووفاة شارل السمين

وهو آخر ملوك هذه الأسرة، كانت أعواماً حصل بها التفسخ والانحطاط في الإمبراطورية الكارولنجية، مما شجع البابوية على فرض نفسها للدفاع عن حقوقها بحزم، ولقد بدأت مرحلة جديدة عام 962م عندما توج أوتو الأول إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة التي كانت تشمل جميع الأراضي الألمانية، ففي تلك الآونة بالذات ظهرت إلى السطح من جديد قضية العلاقات فيما بين البابا والإمبراطور، وذلك لأن هذه العلاقات كانت المشكلة الدرامية المزعجة المثيرة خلال العصور الوسطى أو على الأقل بالنسبة لوضع الكنيسة في تلك العصور، ولهذا فسوف نوليها اهتماماً خاصاً في هذا الكتاب، ولقد تأزم الوضع ووصل النضال إلى أوجه في القرن الحادي عشر بظهور البابا غريغوري السابع، وهو الذي عمل بحماس وإرادة لا هوادة فيها إلى قطع الحبل السري الذي كان يصل بين البابا والإمبراطور في تلك الوحدة الغامضة المعالم، وإلى إحلال الدكتاتورية البابوية مكان تلك الوحدة، ويعرف هذا النزاع بصورة عامة باسم مشكلة تقليد المناصب، وسوف نعالجه بصورة مفصلة في المستقبل، إنما علينا أن نعالج أولاً جذور هذا النزاع، أي النظرية الأساسية اللاهوتية والسياسية التي كانت تحدد هذه العلاقات بين البابا والإمبراطور.

إن استعمال كلمتي اللاهوتية والسياسية لوصف النظرية ربما أدخل العجب والحيرة لنفس القارئ الحديث، ففي خلال القرون الوسطى كان الفكر السياسي في معظمه مركزاً على الشؤون الدينية اللاهوتية، وقلما كانت الأفكار الدينية منفصلة تماماً (ويمكننا أن نقول: إنه حتى في قرننا الحالي وهو القرن الحادي والعشرون ليس هنالك خط واضح يفصل ما بين النظامين)، وكما يذكر القارئ: تقول الصيغة الجيلاسية: إن الله قد خلق العالم وحدة متكاملة تحت حكم أسقف روما الذي يمنح صلاحية إدارة الشؤون الدنيوية - إن أراد - الحاكم الإمبراطورية الزمني، مع التأكيد التام على دور البابا المتفوق العالي، فهو يتنازل لأنه يريد ذلك، ولأن الله نفسه، قد أمر وقدر وجود سلطتين في هذا العالم: السلطة الدينية، والسلطة الزمنية، وإن سلطة الحاكم الزمنية ما هي إلا هبة من الله، أتت من خلال البابا، لأنه هو وحده نائب الرب الذي يستطيع أن يصادق على، ويعزز حق الأباطرة في الحكم، ولما كانت

السلطة الزمنية معرضة للتورط في إراقة الدماء والفظاعات من الأوزار التي قد تنشأ عن تلك الأعمال في ميادين المعارك، فالسيفان اللذان وهبهما الرب لبطرس هما السلطة الدينية والسلطة الزمنية، وهما قد أصبحا في حوزة البابا، وبموافقته فقط، عهد بأحد هذين الرمزين من رموز القوة الإلهية للإمبراطور، وهذا يعني أن البابا هو السيد المطلق، وأما الإمبراطور فما هو إلا أحد أتباعه الإقطاعيين، وأما القسم الإمبراطوري الذي يقسمه الإمبراطور يوم تتويجه في كنيسة القديس بطرس والذي تشهد عليه الكوريا والشعب الروماني ما هو إلا قسم ولاء للبابا، وتبعاً لذلك فإن البابا الذي يهب الإمبراطور السلطة والتقدير يستطيع أن يسحب هذه السلطة ويخلع الإمبراطور من عرشه، وهذه نقطة هامة بالنسبة لهذا البحث، إذ أن هذه النظرية هي التي كانت سائدة ومهيمنة خلال العصور الوسطى، وكان تنفيذها يختلف تبعاً للظروف، إذ أن بعض البابوات كانوا أقوى من الآخرين، وقد واجهت البابوية نفسها عدة تغييرات وتحولات تسببت بتقلص وتناقص سلطة البابا تبعاً لسلوك الرجل الذي كان يتربع على الكرسي البابوي، ولكن روح تلك النظرية ظلت سائدة لا يعتريها الشك، وبقي البابا ممثل السيد المسيح ونائبه على الأرض دون منازع.

لقد تتابعت الحوادث زمن الأسرة الكارولنجية لتظهر الملابسات المختلفة التي تعرضت لها هذه النظرية، فمع أن شارلمان نفسه هو الذي بدأ بتلك السابقة القانونية، التي أصبح الأباطرة القادمون ملزمين بها، وهي التتويج على يد البابا، إلا أنه وبعد بضع سنوات من موت شارلمان وجد البابا غريغوري الرابع (827 ـ 844م) نفسه ملزماً أن يذكّر الأساقفة الألمان بحق السلطة البابوية الروحية بالتفوق والسيادة على السلطة الزمنية، وذلك بما فيه سلطة الإمبراطور، وقد توج ابن شارلمان وهو لويس التقي على يد البابا ستيفن الثامن (816 ـ 817م) في ريمس، بينما توج ابن لويس هذا وهو لوثير في روما، وقد تقرر مصير هذه المشكلة زمن لوثير هذا، وذلك لأنه عندما انتخب البابا سيرجيوس الثاني (844 ـ 847م) دون الموافقة الإمبراطورية التي اتفق عليها في مثل هذه الأحوال، أرسل لوثير جيشاً إلى روما لإجبار البابا على تقديم الخضوع والولاء المناسب للإمبراطورية، وقد

رفض البابا واستنكر دخول لوثير إلى كاتدرائية القديس بطرس وقال لـه بشـدة: «سـوف لا يفتح لـك هـذا البـاب حتـى تـأتي ولديـك النية الصافيـة والاستقامة بالسعي وراء مصلحة الدولة»، وعندها رضخ لوثير، وبعدهـا أصبح ممثل الإمبراطور فـي الكوريا الرومانيـة لا يزيد عن كونه سفيراً لدى البابا، وليس حاكماً.

وفي مجمع بافيا عام (876م) أوضحت القضيـة بتعـابير لا لبس فيـها ولا إبهام فـي إعلان موجه إلى شارل الأصلع، الذي كان قد خلف لتوه لوثير، وأصبـح إمبراطوراً: «لما كانت النعمة الإلهية التـي وصلت مـن خـلال أفضـال الرسـل المقدسـين، وبواسطة ممثلـهم يوحنا الثامن (872ـ882م) الحبر الأعظم والبابـا العـالمي، وأبونـا الروحـي قـد رفعـك إلـى مقام الإمبراطوريـة طبقـاً لإرادة الـروح القـدس، لـهذا فإننـا ننتخبـك بالإجمـاع حامياً لنـا» وعندما كان الأباطرة السكسون الذين يتوّجون في رومـا ينـالون موافقـة البابـا كـانت صيغـة العرض كما يلي: «إذا دخلت روما بعون الرب وقدرته، فإني أقسم بكل ما أوتيت من قـوة أن أعلي مقام الكنيسـة، وعلـى رأسـها يوحنـا الثـاني عشـر (955ـ964م)، وسـوف أسـلم مملكة إيطاليا إليه وسوف أطلـب منـه أن يقسـم أن يدافـع بكـل مـا أوتـي مـن قـوة عـن مملكـة الكنيسة، وعن أملاك الرسول بطرس».

إنه لمن الصحيح أن أملاك الكنيسة الواسعة في عدة بلدان قد أضافت قوة كبيرة لمركز الكنيسة، ولكن مركز البابا كان سيصبح هشاً يتعذر الدفاع عنـه لـولا تلـك القـوة الروحانيـة الخفية الكامنة في التقاليد الرسولية، والحقيقة أنـه حتـى فـي أيـام انحطـاط وفسـاد البابويـة، احتفظ البابوات ـ حتى غير الأخلاقيين منهم ـ بالهالة الروحانية حول وظائفهم، ممـا كـان لـه أثره على الملوك والأباطرة، فكل ما كان يصدق على الروابط الخفية للبابويـة، كـان يصـدق على مدينة روما نفسها إذ ظهر أنها تمتلك قوى فطرية لا تقدر بثمن، مع أنها قد توقفت عـن أن تكون الجوهرة التي ترصع تاج المدن والإمبراطورية، ومع أن العصور الوسطى لم تنجب فناناً مثل بيرانيسي Piranaisi يحتفظ لنا بصور عن معالم روما في القرن العاشر، كما فعـل ذلك الفنان العظيم بالنسبة لرومـا فـي القـرن الثـامن عشـر، إلا أننا لا نعـدم المعرفـة الكافيـة

حول روما في العصور الوسطى، ولهذا نستطيع أن نصفها للقارئ، ولكن الأمر المدهش كيف أن قسماً كبيراً من المدينة الإمبراطورية قد بقي سالماً لم يمس بعد كل ما تعرضت له المدينة من نهب وسلب، ولا يزال كتاب غريغوري المعجز المؤلف من ثمانية مجلدات عن تاريخ روما في العصور الوسطى، هو المصدر الرئيس الوحيد لكل من يهمه الأمر، ولكننا نستطيع أن نسمح لأنفسنا بإلقاء نظرة سريعة على روما في ذلك العصر من العصور الوسطى، إن لم نستطع أن نمتنع ونمسك عن ذلك كلياً.

فبابوات غيتو اليهود الذين هم موضوع كتابنا هذا، كانوا أفراداً من أسرة تعمل في الوساطة العقارية أو السمسرة العقارية في روما، وكانت بيوتهم وقلاعهم جزءاً من الأبنية المعمارية الثمينة والشهيرة في المدينة، ولما كنا سوف نتبع خطواتهم وهم يتحركون في مسقط رأسهم، لذا علينا أن نتعرف على روما لنعرف أي نوع من المدن كانت هذه المدينة في العصور الوسطى، يكتب ر. و. سازرن R.W.Southern: «إن روما لا تزال تعد قلب أوروبا النابض من وجهة عاطفية، ولكنها من جهة اقتصادية وإدارية أصبحت قلباً قد توقف عن الخفقان، فالريف حولها قد أضاع معظم خصوبته الماضية بسبب قلة التروية، والمدينة أصبحت مركزاً تجارياً ضئيلاً، والجزء الأعظم من منطقة التلال السبعة استمرت كما كانت مقر الحدائق والكروم والأطلال والخرائب والفراغ، وفي داخل الأسوار التي كانت تضم حوالي المليون نسمة، تجمعت وتحلقت جماعات من السكان في القسم الأسفل من المدينة على طول ضفاف النهر، وفي الجزيرة على التيبر، ولقد كانت روما مدينة كثيرة الكنائس، إذ كان بها حوالي ثلاثمائة كنيسة في نهاية القرن الثاني عشر، وربما كان هذا العدد نفسه موجوداً قبل ذلك بقرنين من الزمان، وهذه الكنائس تعد أساس حياة روما، فالحج إلى روما كان يؤلف قوام اقتصاد المدينة، فكل إنسان في المدينة اعتمد على الحج بشكل أو بآخر، ابتداء من رجال الاكليروس الذين كانوا يقومون بخدمة الكنائس إلى أصحاب البيوت المعدة للإيجار، إلى مقرضي الأموال، إلى الوسطاء من جميع الأنواع والأشكال إلى الأرستقراطية الصغيرة التي عمدت إلى إنشاء القلاع الحصينة ضمن خرائب المدينة

القديمة، وهذه الطبقة الأخيرة كانت تفرض الأتاوات، وتكتسب الأموال التي تمكنها من العيش بكرامة، من الضياع التي تمتلكها المدينة، ولكنها كانت تهدف أيضاً للسيطرة على ثروات الكنيسة فضلاً عن ثروات العلمانيين من أهالي المدينة، إلا أن غنيمتها المنتقاة كانت البابوية، وقد كانت عائلة بيرليوني التي انحدر منها البابوات من غيتو اليهود تنتمي إلى هذه الجماعة من النبلاء».

وعلى الرغم من أن كثيراً من الآثار القديمة قد سقطت بيد الكناسين ورجال القمامة، فقد استعملت رؤوس التماثيل الرخامية كمعروضات تجارية، واستعمل الجزارون المزهريات القديمة في حوانيتهم، وجمع آخرون النواويس الثمينة المزخرفة لخزن المواد التجارية، أما الأبنية القيصرية الرومانية، فبقيت سالمة لم تمس، ومن بين هذه كان الكولسيوم، ومقبرة هدريان، ومسرح مارسليوس، وأقواس النصر الجميلة التي أقامها تيطس وقسطنطين، وحمامات كركلا، وبالطبع بقيت كثير من الكنائس القديمة ككنيسة سانتا ماريا في تراستفيري، وسانتا ماريا ماجيوريا، وكنيسة القديس بطرس، ومع أن السير على الطرق كان صعباً ومتعذراً، إلا إننا نجد مئات من الزوار من جميع أنحاء العالم يتجولون في المدينة، وهم مندهشون لما يرون من الأنصاب والآثار القديمة، وقلوبهم تتوق لأداء الصلوات مع الحبر الأعظم ونيل بركاته وغفرانه لخطاياهم، وهذا هو الهدف العظيم الذي كان يسعى للوصول إليه، كل الخطاة في العصور الوسطى.

كان السكان في روما الذين حكمهم بشكل فضفاض مهلهل مجلس الشيوخ، الذي احتفظ باسمه القديم دون أن يمارس أعمال ووظائف البرلمان، ممثلاً هؤلاء السكان الذين كانوا يتألفون من الأسر القديمة التي عاشت في روما منذ مئات السنين، وكانت روما مقسمة جغرافياً إلى ثلاثة عشر إقليماً، أما اقتصادياً فكانت مقسمة طبقاً لنقابات التجار والصناع في العصور الوسطى، وكانت هذه النقابات أول شكل اتخذ لحماية الصناع والتجار، فقد مارست خدمات نقابات العمال الحديثة نفسها، وكانت تقدم لأعضائها إعانات للمرضى ولدفن الموتى وعمل المقابر، وهذه المجموعات من العمال الفنيين

وأصحاب المهن الراقية تعد كيانات اجتماعية محافظة على أوضاعها، حيث ترى الذي يعلم ابنه أسرار المهنة التي اشتهرت بها العائلة التي تحافظ على حصر الزواج ضمن نطاق العائلة فقط، وهذه المدارس لها نظائرها Scholae Peregnorum أي نقابات «أبناء السبيل»، وأن استعمال كلمة أبناء السبيل واصطلاح غريب بالنسبة لتلك المجموعات التي استمرت في المعيشة في روما أجيالاً وأجيالاً، وبعضها كاليهود مثلاً قد قطنوا في روما منذ أقدم عصور الرومان قبل المسيح بزمن طويل، ولكن هذا الاصطلاح ينقل لنا حقيقة ملموسة وهي أن كلاً من هذه المجموعات مع أنها لا تتميز في اللباس أو الكلام أو العادات والانتماء السياسي عن الرومان الأصليين، إلا أنها احتفظت بسماتها العرقية، فضلاً عن علاقاتها ببلاد غير إيطالية، وهكذا كانت هنالك مدارس خاصة باليونان والانجلوسكسون والفرنجة واللومبارد والفريزيين والسوريين والمصريين وطبعاً اليهود، وكل من هذه المجموعات كان يعيش في حي خاص (من الواجب أن نشير إلى أن الكلمة المألوفة شول التي تعني الكنيس اليهودي القديم تذكرنا بالكلمة Schola، وليس لها علاقة بالكلمة اليادية Yiddish التي تعني مدرسة) وكانت السلطة الحقيقة في روما بيد تلك الأسر النبيلة التي غالباً ما كانت تنسب للإمبراطورية القديمة، وكانوا من مالكي الأراضي على مقياس واسع، وبعضها كعائلة كرمسنتي، وكونتات توسكانيا كانوا يملكون أملاكاً لا بأس بها في ضواحي روما، وكان للعائلة التوسكانية قصراً أشبه بقلعة في الجبال على بعد خمسة عشر ميلاً من روما، وهذه حقيقة ذات أهمية عسكرية، فالنبلاء هم الذين أنيطت بهم شؤون الإدارة في المدينة، وكذلك الشؤون القضائية والعسكرية، وتنحصر السلطة في هؤلاء بحاكم المدينة (الذي يعينه البابا)، وبقاضي القضاة، وقائد المليشيا وإلى بداية الإصلاح الكبير في الكنيسة، كانت هذه الوظائف الثلاثة غالباً ما تنحصر في عائلة واحدة، أما الخصومات العائلية وإن كانت تتأزم باشتراك أشخاص لهم مواقف خاصة تجاه الإمبراطور الجرماني، ولكنها كانت تقع على عواتق أفراد الطبقة الوسطى من البورجوازيين التجار وأصحاب الصنائع الذين لم يكن لهم حول ولا قوة سواء عسكرية أم

سياسية، فالمنتصر لم يكن باستطاعته نيل الثلاث وظائف العليا المذكورة أعلاه فحسب بل البابوية أيضاً، وقد مضى أكثر من قرن والبابوات ينتخبون من العائلات الحاكمة هذه حيث كانوا مجرد «ألعوبة» في أيدي إخوانهم الأغنياء، إذ لم يكن لهم إلمام بالخفايا والتدريبات اللاهوتية من أي نوع كان، وقليل منهم بدَّل أسلوب حياته بعد أن تسلم أعلى وظيفة في العالم المسيحي، وبعضهم تربعوا على عرش البابوية، وهم لا يزالون في سن المراهقة، وبعضهم استمر في الحياة كأطفال مدللين يعبثون في القاعات المقدسة في القصر اللاتيراني، وبذلك جعلوا وظيفة الأب المقدس مدعاة للسخرية، وقد تسربت إلى الفاتيكان الخليلات والأطفال غير الشرعيين، لا بل حتى القتلة والمجرمون.

ولا نستطيع أن ندرك قيمة وضرورة حركة الإصلاح التي عملت على إنقاذ الكنيسة من الورطة التي كانت قد سقطت بها، إلا إذا تفهمنا أعماق الهوة التي تردت بها البابوية، ويكتب المؤرخ غريغوري حول ذلك الفصل المخجل من تاريخ البابوية قائلاً: «ما هو هذا المجتمع، وما هي هذه الحالة، عندما نرى الأمم تتقبل الطفل كحاكم أعلى للكنيسة، ويعترف به الملوك، ولا يخجل الأساقفة أن يستلموا مراسيم تنصيبهم منه، ورموز كرامتهم، أو الأوامر البابوية الرسمية من يديه، ولقد بدا أن البابوية قد فقدت مُثُلَها اللاهوتية السماوية، وأن كرسي بطرس الأسقفي قد تحول إلى مقعد كونت، وانحدر مقام البابوية بحيث لم يعد مختلفاً عن مقام الأسقفيات التي كان الأمراء الأقوياء والعائلات النبيلة قد تسلطوا عليها، ورفعوا أقاربهم بما فيهم الأطفال الصغار إلى المناصب العليا في الأسقفيات هذه، فقد سقطت الكنيسة في الظلام الدامس أخلاقياً، وإدارياً وسياسياً وإذا جاز لنا القول إنه عندما حدثت الترتيبات والإجراءات التي نوهنا عنها أيضاً في الكنيسة، أدى ذلك إلى هجوع المسيح في سبات خفيف في الهيكل، كما يصح لنا أن نقول الآن إنه بعد أن وصلت الكنيسة إلى ما وصلت إليه من الانحدار، أدى ذلك إلى هجر المسيح الهيكل كلية، بعد أن انتهكت قدسيته ودنست، وها قد استلمه سمعان المجوسي المتغطرس الوقح «يعني السمعانية - السيمونية = بيع المناصب الدينية».

لقد بدأت هذه المرحلة المأساوية بشكل غير مباشر باستلام فورماوس (891 ـ 896م) السلطة البابوية، وكان هذا مبعوثاً بابوياً من قبل في بلغاريا، وقد أثبت أنه شخصية غريبة تستحق الدراسة، فقد كان يمثل صفات متناقضة، بل صارخة في التباين والتناقض، إذ كان أولاً رجلاً متقشفاً متنسكاً بشكل صارم، وطبق على نفسه نظاماً حازماً في حياته الخاصة بأن نذر نفسه وكرسها للصلوات، والصيام، والورع، إلا أنه كان يراقب والغيرة تملأ قلبه تلك الامتيازات البابوية، لذلك أحاط نفسه بشرذمة من الأوغاد والأنذال، ومدبري المكائد في روما، وفي طرفة عين أصبح أفاقاً سياسياً رهيباً، فقد قام بتتويج لامبرت دوق سبوليتو إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة، ثم ما لبث أن خلعه بعد عام تقريباً وتوج أرنولف ملك ألمانيا بسمات الوقار نفسها، وفي كنيسة القديس بطرس الرسول نفسها، والحقيقة أنه لم يظهر لهذين الحادثين أي أثر في نفسية فورماوس هذا سوى رضاه بتنفيذ طموحاته الغريبة، ولكن كان لهما وقع وصدى في العالم الخارجي، إذ عندما مات فورماوس هذا عام 896م ودفن بكل إجلال واحترام يليق بالحبر الأعظم للكنيسة الرومانية الكاثوليكية، خلفه ستيفن السابع (896 ـ 897م) ولا نعرف الكثير عن حياة هذا البابا، سوى دوره الذي أعد له مشهد «محاكمة الجيفة بعد الموت»، وهو المشهد الذي شهدته القاعات المقدسة في كنيسة الرسول بطرس، والذي هو مدعاة للاشمئزاز فضلاً عن الإثارة والرعب، حتى أنه يصلح كمقدمة أو استهلال غريب غير عادي لتلك المرحلة من الفسوق التي سرعان ما تبعت.

لم تستطع (ألجيترود) والدة (لامبرت) الإمبراطور المخلوع على يد (فورماوس) أن تتحمل الإذلال الذي أصاب ولدها نتيجة لخلعه، فعمدت إلى حبك مؤامرة، وخطة لا يمكن تصديقها، لو حدثت في هذه الأيام، إلا إذا شهد صحتها شهود عيان موثوقون، فبعد تسعة أشهر من وفاة فورماوس، دعي عدد من أفراد الاكليروس والنبلاء لحضور محاكمة في كنيسة الرسول بطرس، وهي محاكمة فورماوس وجلس ستيفن السابع، يلبس رداء قاضي القضاة في مقعده الملكي الطويل الفخم، يحيط به أعضاء الكوريا،

وحالما افتتحت حيثيات المحاكمة، أحضر جثمان فورماوس، الذي كان قد نبش من ضريحه، وألبس ملابس الحبر الأعظم القرمزية، ثم حمل بوقار ووضع على كرسي بطرس الرسول، وانتشرت رائحة النتن والموت وسيطرت على أجواء المحكمة، وكانت عينا الجيفة المجوفتان بعد أن سقط التاج البابوي بشكل ممجوج سمج فوق الجمجمة، كانت هاتان العينان تحملقان بالقاضي الذي بدأ بقراءة قائمة طويلة من الاتهامات لزميله وسلفه اللاهوتي متهماً إياه بالخيانة العظمى والتستر على الجريمة، والتواطؤ مع عدم الأخلاقية، ولم يحدث في التاريخ أن تعرضت أية قاعة من قاعات المحاكم لمثل هذا الاستفحال المثير، وزيادة في السخرية فقد عين محام للدفاع عن المتهم، وليقف بجانب الجثة البابوية، ثم استجوبت المحكمة عدة شهود، ولكن محامي الدفاع لم يستطع أن يسوغ أعمال البابا هذا وقد جلست والدة لامبرت في مقعد الشهود، وهي ترتجف بانفعال الشامتين، ذلك الانفعال الذي يدل على شدة ولعها بالانتقام، ثم نطق القاضي بالحكم بوقار، وأعلن إدانة فورماوس وألغيت جميع مراسيمه البابوية فضلاً عن جميع التعيينات التي أحدثها خلال السنوات الخمس التي حكم بها، وقرر القاضي قطع أصابعه الثلاث التي كان يستعملها عند إعلان بركاته البابوية على الجمهور، وهنالك في كنيسة القديس بطرس، وهي التي استعملت بمثابة غرفة الجلاد موقتاً، بترت الأصابع الثلاث من جسم الحبر الأعظم، وهكذا تم إذلال وتشويه البابا بشكل مشين مخجل، وأزيلت عن جسمه الأثواب القرمزية، ونزع عن رأسه التاج البابوي وقذف بما بقي من الجثة من النافذة ليستلمها رعاع روما الذين كانوا يصرخون ويضجون، بعد أن كانوا قد أخطروا سلفاً بما كان يحدث من عمل مروع رهيب ساخر.

بدأت كتل الجماهير بالتمايل والترنح في ألوف مؤلفة أمام أقدس بيت عبادة في العالم المسيحي، ومد أفرادها أيديهم بشوق، وهم يصرخون بنشوة عندما تلقوا الجثة وحملوها إلى مقرها الأخير لترمى في أعماق نهر التيبر، وكان هذا اليوم يوم عطلة حقيقية في روما وقد أعدت أجيترود المال الكافي لشراء الخمور التي كانت ضرورية لذلك الشعب الهائج المائج الفاقد الإحساس، بعد ذلك العيد غير المقدس، وبعد انتهاك قدسية كنيسة بطرس الرسول.

أمن الممكن أن يوجد هنالك خير من هذا الاستهلال لتلك المرحلة من حكم البابوات التي لم تعرف لها الحشمة والتي سلطت بها الأضواء نحو تلك الزوايا المخجلة من الفساد الأخلاقي، بحيث سمح لشرذمة من النسوة بحكم روما في كل من المدينة والفاتيكان، فقد استولت ثيودورا، وهي زوجة واحد من أعضاء مجلس الشيوخ الأقوياء، وهو ثيوفيكلات، مع اثنتين من بناتها على (سانت انجيلو)، وهناك وطدن سلطتهن في جميع أنحاء المدينة، وقد تبع ذلك عهد من الفظاعات، والخلاعات، والفسق والدعارة التي ليس لها حدود، وقد ولدت ماروزيا وهي أجمل البنتين وأبرعهن، طفلاً غير شرعي وأصبح هذا الطفل فيما بعد البابا يوحنا الحادي عشر (921 ـ 935م)، وسعى البريش وهو عضو آخر من أعضاء الأسرة إلى انتخاب نفسه عضواً في مجلس الشيوخ في روما، وحكم لمدة اثنين وعشرين عاماً، ولم تكن قضية من يعتلي العرش البابوي أمراً ذا بال، لأن هذه النسوة كن السلطة الحقيقية في روما، وهكذا توقف وجود البابوية عملياً، وتوقف صدور الأوامر البابوية الرسمية، ومظاهر الخضوع والطاعة للبابا أو الأبهة والصلوات والإيمان هذه كلها أصبحت أشياء لا معنى لها، ذلك أن الشيطان جلس على عرش بطرس، وخلال الستين عاماً التي تلت موت ستيفن السابع عام 897م تولى عرش بطرس سبعة عشر من البابوات، ولم يكن يستحق منهم أحد أي احترام، اللهم إلا القليل، فمثلاً كان بين هؤلاء أوكتافيان وهو حفيد ماروزيا، الذي أصبح يعرف باسم البابا يوحنا الثاني عشر(955 ـ 963م) (بالمناسبة كان أول بابا يبدل اسمه الحقيقي عند ارتقائه عرش البابوية)، وكان في السادسة عشرة عندما ارتدى الرداء البابوي، واعترف به شعب روما طوعاً أو كرهاً، حاكماً روحياً للكنيسة، وقد قيل عنه أنه لم يدخل الكنيسة طيلة حياته إلا في الاحتفالات الرسمية، عندما كان يرأس القداس، ومع أنه لم يخطئ عند تلاوة البيانات الرسمية البابوية، إلا أنه كان كثير الخطأ في حياته اليومية، فقد عاش حياة ولد مدلل لعوب، كما كان كثير من زملائه الذين أتوا قبله والذين أتوا بعده في هذه المرحلة من مراحل الخزي والعار، ومع ذلك فقد ركع أمامه الإمبراطور الألماني أوتو الأول احتراماً للمركز أكثر منه احتراماً

للشخص الذي شغل المركز، وقد استلم الإمبراطور لقاء ذلك الاحترام تاج الإمبراطورية بعد أن نال البركة البابوية المرجوة التي لولاها لما استطاع أي إمبراطور أن يمارس الحكم، وهكذا فقد تمتع البابا بالاحترام حتى في أيام انحطاط البابوية، وهذا يعكس إيمان رجال العصور الوسطى، وخلع البابا يوحنا عن عرش البابوية فيما بعد واغتيل في النهاية، ومع هذا وجد بعض البابوات من نوعيات وسويات تختلف عن نوعيات تلك المرحلة، فالبابا غريغوريوس الخامس (996 ـ 999م) وهو أول بابا ألماني، وهو ابن عم الإمبراطور أوتو الثالث، كان شاباً في الثالثة والعشرين، ذا نوايا نقية حسنة، وحافظ على كرامته الشخصية، لكنه لم يحكم سوى ثلاث سنوات، لهذا لم يستطع أن يظهر هذه النوايا بوضوح فقد دس له السم، وهو في السادسة والعشرين، وكان خليفته أول بابا فرنسي جيربرت الأوريلي، رئيس أساقفة ريمس الذي اتخذ لنفسه اسم سلفستر الثاني (999 ـ 1003م) ولم ينجب القرن العاشر رجلاً متعدد المواهب، خلاقاً مبدعاً كهذا الرجل، فقد بدا وكأنه رجل من رجال النهضة ولد قبل زمنه في عالم كله صخب وفساد أخلاقي وركود، وقد كان رجلاً مسناً عندما استلم منصب البابوية وواجباتها، وعد هذا المنصب عبئاً ثقيلاً لا يحمل وتعرف على ثلاثة أباطرة، وكان له ارتباط وثيق بالإمبراطور أوتو الأكبر، وقد أوحى لهذا الإمبراطور وأثار في نفسه طموحاً لتجديد مجد الإمبراطورية الكارولنجية وازدهارها (رحل أوتو إلى آخن، وفتح ناووس شارلمان وأقسم أمامه الأيمان المغلظة أن يستمر في إعلاء شأن الإمبراطورية وتوسيعها، لكن سرعان ما توفي ولم يستطع أن يبر بوعده).

وفي أثناء تولي سلفستر البابوية كان يحكم بصفته رجل دولة متمكن ويحاكم بصفة عالم متفهم، وكان عقله المتفتح النشيط، مشغولاً بعلوم المنطق والرياضيات واللاهوت، والفلسفة، واشتغل على سبيل الهواية بالكيمياء والطب والفلك، وأنشأ كرة تمثل الكرة الأرضية، وساعة في ماجديبرج، ووضع أرغناً في ريمس، وكان له أصدقاء من العلماء يراسلونه من جميع أنحاء العالم، وقد اشتهر عنه أنه اشتغل بالسيما وتكشف أعماله

المختلفة وكتاباته وقراراته البابوية وترجماته، ومناظراته ومواعظه التي لا يزال قسم منها موجوداً حتى الآن، كلها تكشف عن معرفة وثقافة هائلة، ولا عجب أن يعدّه رجال الأدب (فاوست) الأصلي في رواية جوتيه وشعره الدراماتيكي وفي قصيده.

وهكذا برقت بارقة أمل في الكنيسة في حوالي نهاية القرن العاشر، وسرعان ما انتشرت وأصبحت لهباً قوياً على يد مجموعة صغيرة من الناس، كانوا يجتمعون في مكان قد نسي موقعه الآن قرب مدينة ماكون في برغنديا، وهو مكان يدعى كلوني، والحقيقة أنه لم يبق إلا القليل من ذلك الدير الرومانسيكي[1] الذي كان مركزاً لحركة الإصلاح المثمرة للكنيسة، وفي هذه الأيام يذهب الناس إلى هذا الدير لتذوق الخمور الشهيرة في تلك المنطقة ولا يعلمون شيئاً عن تلك الثورة الدينية التي بدأت هناك، والتي كما يقول بعضهم، قد وضعت أسس الدولة الجديدة، أسس ذلك الدير وليم أكويتين الذي حمل لقب «التقي»، وهو رجل عرف عنه أنه كان متحمساً، لأن تلك الروح الشريرة التي أفسدت البابوية قد انتقلت بالعدوى إلى كل دير وكل كنيسة تقريباً، وذلك عندما أصبح قصر اللاتيران داراً للدعارة وماخوراً، ومقراً للمقامرين، عندما لم يعد أحد ينتظر من الرهبان أي شيء أفضل من ذلك، فالمكتبات قد غطيت بغبار الإهمال والنسيان، ونسيت الصلوات في كثير من الكنائس، ولم تعد تسمع الاعترافات المعتادة، وإذا استشهدنا بمثل واحد فقط نجد أن دير «فارفا» قرب روما، كان يقوم بصنع وتحضير السموم، وهكذا تردت المسيحية بأسرها في مهاوي الفساد تبعاً لتردي البابوية، وأصبح من الواضح أن الواجهة المصطنعة الموجودة في روما سوف تنهار إذا لم يحدث أي إصلاح سريع.

لقد تقدم دير كلوني بالبادرة الروحية الجديدة، وكان من الواضح أن هذه البادرة لا يمكن أن تصدر إلا عن مجموعة كهذه المجموعة، من الأنصار المتحمسين والمتعصبين للدين، والذين قد انفصلوا تماماً عن الالتزامات الدنيوية وكرسوا أنفسهم لذلك الواجب

---

(1) الطراز الرومانسيكي في العمارة: هو الطراز الذي انتشر في العصور الوسطى بين فن العمارة الرومانية القديمة والقوطية الحديثة.

المقدس بإنقاذ الكنيسة، ومن ثم المسيحية، فلم يعد الزهد والتنسك والتقشف وحرمان الذات مهما كان مرغوباً به ومحموداً، لم يعد كافياً بذاته بل أصبح من الواجب تأسيس نظام أخلاقي جديد، نظام لا يحتمل أي انتهاك أو تدنيس مهما كان طفيفاً، وقد اشترطت حركة إصلاح دير كلوني أن تكون إعادة توكيد الضمير المسيحي، مرتبطة بالرب وفي الرب وجميع قديسيه، وهذا ما أثبته وليم في الوثيقة التي تعد دستور دير كلوني المعمول به، ويستطرد وليم بقوله: «أرجو وأتوسل تحت طائلة العذاب يوم القيامة، أن لا يسمح لي أمير أو كونت أو أسقف بان يتجرأ بتعيين أي رئيس لدير لا يرضى به الرهبان في ذلك الدير». وتأسس دير كلوني عام (909م) وكان رؤساؤه من نبلاء الفرنسيين، فأول رئيس له كان (بيرتو) والثاني (أودو) وهو الأهم، وكانا فرنسيين من ذوي الأصل الطيب، ازدريا طعام الدير المقنن.

وقد أسسا نظاماً صارماً لا هوادة فيه ولا لين، ومع ذلك لم يكتفيا بالعيش بصورة منعزلة في دير كلوني، بل تركا الدير ليجوبا في الآفاق من بلد إلى بلد، ومن دير إلى دير حتى بلغ بهما النجاح أن انضمت إلى مسيرتهما وخضعت إلى قواعدهما وأحكامهما حوالي ثلاثمائة وأربعة عشر ديراً في فرنسا، وإيطاليا، وبولندا، وإسبانيا، وفلسطين، واسكتلندا، وبلغ عدد الرهبان في هذه الأديرة الألوف ولم يكن هنالك سوى رئيس واحد لجميع هذه الأديرة، وهو راعي دير كلوني، أما رؤساء الأديرة الأخرى التابعة، فأصبح كل منهم يسمى الكاهن الأول، وكان أول دير أنقذاه هو دير جبل كازينو (مونتي كازينو) وهو ذلك المعقل القوي البندكتي الشهير الذي كان قد بدأ يسقط فريسة للفساد المستحكم، وكانت أهداف الحركة الكلونية البندكتية ذات ثلاثة أبعاد: النضال ضد السمعانية (بيع الوظائف الكنسية) والمعركة ضد زواج الاكليروس، والحرب ضد فجور وانقياد الرهبان للشهوة الجنسية، وإن قائمة الجرائم والآثام التي اتهم بها الولد المدلل اللعوب يوحنا الثاني عشر توضح بجلاء كم كان الإصلاح الجذري ضرورياً وملحاً، وفي عام 962 اتهم هذا البابا نفسه في محاكمة علنية باستلام الرشوات لسيامة الأساقفة وأنه عين ولداً في العاشرة

من العمر في وظيفة أسقف، وأنه اقترف الزنا مع خليلة والده، وأنه كانت له علاقات سفاحية مع أرملة والده، وإذا أضفنا إلى ذلك أن الزواج كان شائعاً بين الاكليروس (كان جميع الكهنة في أسقفية فيرونا مثلاً متزوجين)، حتى أن الكاهن المتزوج في ميلانو عد محترماً ومبجلاً، لأن الكاهن غير المتزوج، كان من المفترض اتخاذه خليلة لنفسه، ولما كانت الوظائف الكنسية العالية تشترى وتباع، عندها يمكننا أن ندرك كم كان حجم عمل دير كلوني الإصلاحي كبيراً، لقد باشر دير كلوني أعماله بحماس، وأصبح القيم والحارس الأمين على جميع المثل الأخلاقية المسيحية، ولكن مهما كانت أهمية وتأثير أعماله في الأديرة والأبرشيات، فقد كان هدفه الرئيس هزيمة البابوية، وقد احتاج دير كلوني وقتاً طويلاً وانتظر ما يزيد على مائة وخمسين عاماً، حتى انضم إلى حركته أحد البابوات ووقف بحزم إلى جانبه في حركة الإصلاح، وكذلك فقد مضى قرن آخر من الزمان قبل أن ينتهي الصراع في سبيل تنصيب رجال الدين، وهنا كانت الغلبة والنصر النهائي لدير كلوني.

وفي بداية القرن الحادي عشر أصبح رجال الفاتيكان ألعوبة بيد نبلاء روما فقد خرجت أسرة من الأسر النبيلة تدعى (تسكولاي) منتصرة في نزاعها العنيف مع أسرة كرسنتي، ولذلك انتخب سيرجيوس الرابع (1009 ـ 1012م) وهو من أقارب العائلة المنتصرة، بابا، وبعد موته ظهر أن البابوية قد أصبحت إرثاً تسكولانياً، إذ كان البابا بندكت الثامن (1012 ـ 1024م) تسكولانياً آخر، وهو الذي خلف سيرجيوس وأصبح أخوه بموافقة من الإمبراطور هنري الثاني قائد مليشيا روما، ورئيس القضاء، ومقدم النبلاء، والمسؤول عن انتخاب البابوات، وهي مجموعة مهمة من الوظائف كانت تخوِّل حاملها سلطة ونفوذاً عظيماً في العالم الروماني، ومن الغريب أن بندكت الذي انتخب على يد السلطة الغاشمة للنبلاء الرومان، قد أثبت أنه كفؤ وذو فاعلية وتقوى، فقد اهتم اهتماماً شديداً بحركة دير كلوني، وبعد وفاته انتخب أخوه روميولوس بابا، لكنه لم يكن ذا جدارة وفاعلية كأخيه، وقد اتخذ اسم يوحنا التاسع عشر (1024 ـ 1032م) وتبعه واحد

من أقربائه كان قد احتفل لتوه بعيد ميلاده الثاني عشر، وذلك حسب المصادر التاريخية للعصور الوسطى، ولكن المؤرخ الإنكليزي ريجنالدين بول يرتأي أنه كان في العشرين من العمر، ومهما يكن عمره، فإنه كان سيء الأخلاق، وهذا أمر أكيد لا شك فيه، كما أن اسمه كان بندكت التاسع.

وتنتهي بهذا البابا (بندكت التاسع) تلك الحقبة القذرة من تاريخ البابوية، بعد أن اجتمع في هذا البابا الشاب غير الناضج، الفاسق جميع ما احتوته كل تلك المرحلة من فساد وفسوق، ويقول المؤرخ غريغورفيوس: «يبدو وكأن شيطاناً متخفياً بصورة كاهن، قد احتل كرسي بطرس الرسول ودنس مقدسات الديانة بأعماله الوقحة، فقد كان هذا البابا يعتمد على حماية أخيه غريغوري، الذي كان يحكم المدينة بصفته عضواً في مجلس الشيوخ الروماني، وقد مارس حياة سلطان تركي في قصر اللاتيران، دون أي رادع أخلاقي، وملأ هو وأخوه روما نهباً ورعباً، وقتلاً وتعطلت جميع الأحوال القانونية».

ومع أن أهالي روما كانوا قد اعتادوا على (لا أخلاقية البابوية) وعلى روح الفظائع في أوساط الأسر النبيلة، إلا أن الأعمال التي ظهرت زمن البابا بندكت تجاوزت حدود المحتمل، لذلك حدث أنه بينما كان البابا راكعاً أمام المذبح في إحدى وقفاته التقية الورعة النادرة، حاول أحد القتلة الاعتداء على حياته واغتياله، ومن المحتمل أن يكون هذا القاتل دفع من قبل أسرة الكريسنتيين، لكن هذه المحاولة لم تنجح بل شجعت الإمبراطور كونراد، وجعلت له عذراً للظهور في روما لدعم البابا الذي لم يعد يتمتع بأي شعبية، وكان هذا الإمبراطور تواقاً لإعادة علاقاته الودية مع أسرة التوسكولاني الموالية للألمان، ولم يكن لديه كبير اهتمام بشؤون الكنيسة الداخلية، ولكن نجاة البابا بندكت بمعجزة من القتل أضافت إلى مواد الشائعات التي تقول: إن البابا لم يكن به مس من الشيطان فحسب، بل من المحتمل أنه ملك القوى السحرية الموجودة في الشيطان نفسه (قيل مثلاً أنه كان يغري الفتيات العذارى، بالذهاب إلى الغابات حيث كن يقعن بفضل سحره فريسات لنزواته الجنسية النهمة التي لا تشبع) وفي عام 1044م لم يعد باستطاعة الشعب تحمل هذه الحالة

الفظيعة، فثار ضد بندكت، واضطر هذا للاستسلام، ولكن لمدة من الزمن، وانتخب سلفستر الثالث بابا، ولكن حكمه لم يدم سوى تسعة وأربعين يوماً عندما قامت المليشيا التوسكولانية وطردت هذا البابا من الكرسي الرسولي، وأرجعت بندكت إلى السلطة، وقد رجع هذا إلى منصبه دون الشعور بالندم أو الأسف، ولم يكن مستعداً لتغيير طريقة، وأسلوب حياته الماضية.

وفي حوالي نهاية ذلك العام نفسه قام بندكت بأفظع حركة من حركاته المروعة، فقد أشاع أنه يرغب بالزواج من ابنة عمه الجميلة، وناقش هذه القضية مع عدد من الناس كان من بينهم عرابه، الشماس الأعظم في كنيسة القديس يوحنا الواقعة في البوابة اللاتينية، وكان هذا الرجل مشهوراً بحسن سلوكه وأخلاقه بإجماع الروايات، فقد وصفه المؤرخ فهلث مالمسيري الذي عاصره بأنه «رجل متدين شديد التقوى والإخلاص»، ويهمنا شأن هذا الرجل كثيراً وسنوليه عظيم العناية في هذا الكتاب، وذلك لأن اسمه كان اليونيس جراتيانوس بيتري ليونيس، أي: «يوحنا جراتيان بيرليوني» وهو أول بابوات آل بيرليوني أو أول بابا من الغيتو اليهودي.

لا نعلم بالتأكيد نوع القرابة التي وجدت بين يوحنا جراتيا وآل بيرليوني ويقول بعض الباحثين الحديثين، إن يوحنا هذا هو ابن باروخ، ومهما كانت الأقوال والتكهنات والفرضيات ليس هنالك من شك أن يوحنا كان بيرليونياً صميماً، وكان قد اعتنق الديانة المسيحية في وقت مبكر قبل أن يتحول أفراد أسرته الآخرين، غداة ذلك اليوم من أيام عيد الفصح في كنيسة القديسة مريم في تراستفيري 1030م، وكما كان باروخ قد اختار اسم بندكتوس فقد رأينا هذا اتخذ اسم (يوحنا جراتيان) عند عملية التحويل، وأما اسمه اليهودي فيجب أن يكون يوشعنان، إذ أن يوحنا جراتيان هي ترجمة حرفيه لهذا الاسم.

في هذا الوقت كان يوحنا جراتيان قد بلغ السبعين من العمر، ويمكننا أن نتخيل بندكت الشاب يتقدم من عرّابه المسن المجرب يستشيره حول قضية حب وزواج، وهي قضية ذات أهمية كبيرة بالنسبة لبندكت لأنه في حالة زواجه، كان عليه أن يتنازل عن حقه في

العرش البابوي، ذلك المركب الذي تردد الشاب بندكت في ركوبه، وهو على ما هو من الفساد الأخلاقي، لكنه أخيراً تنازل عن حقه في العرش البابوي، والحقيقة أن الظروف التي أحاطت بالتنازل لا تقل غرابة عن التنازل نفسه، لأنه قد نمي إلينا عن طريق أحد الثقات أن يوحنا جراتيان قد دفع الأموال لإقناع بندكت بالتنازل عن العرش، ولانتخابه أي يوحنا لذلك المنصب بدلاً منه، وبالنسبة لبعض المعلقين نرى أنه قد وجد نوع من التلميح أن تلك الأسرة اليهودية قد اشترت أعظم منصب في الكنيسة لأحد أبنائها، إرضاء لطموحاتها المتأصلة، والتي ظهرت ابتداءً من ذلك الوقت الذي اعتنقت به هذه الأسرة الديانة المسيحية، قبل حوالي جيلين من الزمان، وقد قدر ذلك الثمن الذي دفعته بمقدار يتراوح بين 1500 ـ 2000 رطلاً من الفضة، وهو مبلغ كبير بالنسبة للقرن الحادي عشر، ويساوي حوالي 6000 جنيه إسترليني، حسب تقدير المؤرخ بول، ومن الواضح أنه لم يكن بإمكان أي رئيس شمامسة، في أي كنيسة رومانية، أن يمتلك مثل هذا المبلغ الكبير من المال، ما لم يكن قد ورثه، أو كان له علاقة قرابة ذات ثراء فاحش، ولم يكن هذا الأمر له أهمية بالنسبة ليوحنا جراتيان، فقد كان بيرليونياً وواحداً من أقارب تاجر وافر الثراء يسكن في المنطقة وراء نهر التيبر، والتي كانت هي الغيتو اليهودي في المدينة، وسواء دفع يوحنا المبلغ ثمناً لنيل منصب البابوية، أو كما يفترض بعض مؤرخي العصور الوسطى دفعه تعويضاً لبندكت عما صرفه من أموال، كل هذا سوف يبقى من الأسرار إلى الأبد، والمهم هنا أن يوحنا جراتيان تمتع بأخلاق حسنة وشخصية محترمة وورع، حتى أنه من الصعب علينا أن نحكم عليه إلاَّ من خلال دوافعه النبيلة في إجراء تلك الصفقة، وقد مضى عليه زمن خدم فيه كنيسة القديسة مريم على الأفنتين، وهو دير عرف عنه النظام والميول الكلونية، وكان يوحنا يميل إلى الإصلاح، وفوق ذلك فإن معظم أفراد أسرته وهم من لحمه ودمه كانوا منذ أول ظهورهم المولين والمستشارين الماليين للبابوات المستنيرين، ولذلك لم يكن الجشع والطمع هو ما شجعه لدفع تلك المبالغ الطائلة، فقد سعى ليصبح أسقف روما لأنه عدّ أن مهمته وواجبه خدمة مبادئ دير كلوني، وأن ينهي تلك المرحلة من العار والانحطاط،

وهكذا اتخذ لنفسه اسم غريغوري السادس، وأصبح في عام 1045م أول بابا من الغيتو اليهودي، وبارك دير كلوني انتخاب يوحنا جراتيان بيرليوني لمنصب البابا، وقابل هذا الحدث بالسرور والغبطة ورحب بذلك الانتخاب، وعدّه نصيراً للإصلاح، ومهما عدّ دفع النقود فيما بعد من قبل رجال الدين في دير كلوني لم يعدوا ذلك إثماً، أو عملاً مستهجناً، وقد كتب هوارس، ك. مان حول هذه القضية يقول في كتابه: «حياة البابوات في أوائل العصور الوسطى»: «احتاجت الآثام العظيمة علاجاً قاسياً» ثم استطرد قائلاً: «كان يوحنا جراتيان يأمل بعد أن دفع حفنة من المال أن يتزوج بندكت قريبته التي اختارها وأرادها لنفسه، ويستقيل من ذلك المنصب الذي دنسه، وقد طلب أوديلو راعي دير كلوني وكان من معاصري يوحنا جراتيان في رسالة أرسلها إلى الإمبراطور، في شهر تشرين الأول عام 1047م: «أن يهتم اهتماماً شديداً بالكرسي الرسولي الأسقفي في روما، فلا يجوز للشخص الذي دفع الكثير (جون جراتيان) أن يخسر كل شيء، لا يجوز أيضاً لبندكت الذي أخذ كل شيء أن يربح ويمتلك كل شيء»، وهنالك رجل معاصر آخر، وهو بطرس دامين، وهو الناسك المشهور في «مونتي فيلانا»، وكان قد عاش عيشة كلها ندم وتوبة، وكبح لجماح النفس، وفي زمنه كان النساك يرابطون في صوامعهم (قلاياتهم) أكثر من عقد من الزمان، ويخضعون أنفسهم لأقصى أنواع الأنظمة وأشدها، وكانوا يصومون ثلاثة أيام في الأسبوع ويتغذون على الخبز والماء فقط، ولا يسمحون لأنفسهم بتناول الفطائر الدسمة إلاّ يوم الأحد فقط، وكانت هذه الكفارات وأعمال أخرى مشابهة هي من النماذج والنظائر السائدة للإصلاح الأخلاقي الذي ابتدعه دير كلوني، ولم يكتب بطرس دومين رسائل التهنئة المدبجة الجميلة دون أسباب وجيهة، فعندما علم بتنازل بندكت، وتولي غريغوري السلطة المقدسة، كتب بطرس هذا إليه يقول: «إلى غريغوري البابا العظيم القداسة، يقدم بطرس الراهب المذنب، إليه الإخلاص والخضوع الكلي، وإني أتقدم بشكري وامتناني للمسيح ملك الملوك، وإن لدي الرغبة لسماع كل الأخبار الجيدة حول الكرسي الرسولي، وإن أنباء الثناء عليكم التي يرددها الكثيرون والتي بلغتني، قد

أثلجت صدري ومست شغاف قلبي، ولقد أسكرتني الفرحة وأصبحت كما لو أني قد تناولت شراباً له نكهة لا مثيل لها، وفي غمرة سروري صرخت قائلاً: المجد لله في الأعالي وعلى الأرض المحبة، والسلام للرجال ذوي النوايا الحسنة، ولتفرح السماء ولترقص الأرض حبوراً، ولتهنئ الكنيسة نفسها، لأنها قد استعادت حقوقها القديمة وليبتعد سمعان مزيف النقود عن الكنيسة، ولتعد أمجاد الرسل تحت رعايتكم الخيرة العاقلة، وليزدهر النظام السماوي، وليكبح جماح أطماع أولئك الذين يطمحون إلى السيطرة على حكومة الأساقفة، وليصب الخزي والعار صرافي الأموال والمرابين وحساباتهم»، بهذه الثقة الكبيرة والآمال العراض، بدأ غريغوري حكمه وقد انتخب على يد شعب روما، مع أنه لم يحز على تثبيت الإمبراطور هنري الثالث، وهكذا استلم غريغوري مقاليد السلطة وصار أسقف روما، وكانت خزينة البابوية خالية الوفاض، والأبنية التي هي الأمانة المقدسة للأمة المسيحية، في حاجة للإصلاح، فكنيسة الرسول بطرس قد أهملت منذ مدة طويلة، حتى أصبح من الخطر إقامة أي قداس فيها، وكانت القلاع المجاورة للفاتيكان تحت سلطة طبقة من النبلاء لا همَّ لهم إلاَّ جني المكاسب المادية والثروات لأنفسهم، وكانت الطرق المؤدية إلى روما مبتلاة بقطاع الطرق واللصوص، والحجاج يعدون أنفسهم محظوظين إذا وصلوا إلى روما سالمين، أو بقي معهم أي شيء من النقود لينفقوه في شراء القرابين، ولا غرابة في هذا فلطالما سرقت التقاديم والنذور التي وضعت على مذبح القديس بطرس، واختطفت من فوقه، ووصلت إلينا وثيقتان تحملان وصفاً فيه شيء من الدقة لسيرة حياة غريغوري السادس، وقد حفظت بعض الرسائل التي كتبها طالباً المساعدة لإنجاز الواجبات الملحة، ولكن لم يذكر فيها خبر صدور أي مرسوم بابوي، ولا أي أمر رسمي أو أي إرادة بابوية، أو أي منشور بابوي، وربما لم يصدر أي شيء من هذا القبيل لأن كل ما كان يهتم بفعله، كان إزاحة النفايات وإزالة تلك الأنقاض، المتراكمة التي تركها البابوات السالفون، مع الاهتمام بالمبادئ الروحانية العالمية، ولم يكن هنالك من إنسان يتطرق إلى ذهنه الشك بنزاهة هذا البابا، وتمسكه بالمبادئ اللاهوتية لدير كلوني، وقد جاء حوله في كتاب «تاريخ

كمبردج للعصور الوسطى» ما يلي : «من المحتمل أن البابا غريغوري، يهودي الأصل، وكان الجميع يعرفون ذلك»، ولكن أول أعماله كانت إعادة ترميم الأبنية، وقد أتته بعض المساعدات من أكويتانيا، ولكنها لم تكن كافية، ولذلك اضطر أن يعتمد على الأموال البيرليونية في سبيل إعادة بناء الكنائس وقصر اللاتيران، وكان قطاع الطرق قد احتلوا بعض القلاع المحصنة المحيطة بالفاتيكان، وهكذا أصبح من الواجب استعمال القوة لإبعادهم عنها وطردهم منها، وأصبح هذا ممكناً بمساعدة المليشيا البيرليونية، بالإضافة إلى القوة العسكرية التي كانت تابعة للبابا.

لاشك أن هذا الرجل الطاعن في السن قد ارتجف فرقاً أمام تلك المصاعب التي جثمت أمامه، فقد كان بندكت التاسع الذي استلم منه هذا البابا السلطة، لا يزال في روما، ولما لم ينجح هذا في مشاريعه الزواجية أصبح يتوق للرجوع إلى مركز البابوية، إذ أنه لم يعزل رسمياً من وظيفته، وفوق ذلك فإن سلفستر الثالث الذي حكم لبضعة أسابيع بعد الثورة التي قامت ضد بندكت، كان هو الآخر لا يزال ينتظر فرصته المواتية في إحدى القلاع خارج روما مستعداً للمطالبة بالبابوية، عندما تسنح له الفرصة المناسبة، وهكذا ليس من الخطأ أن نقول: إنه كان هنالك ثلاثة بابوات يحكمون بالوقت نفسه، بل الصحيح أنه كان هنالك مطالبان طموحان ينتظران فرصتهما للوثوب على العرش البابوي.

في هذه اللحظة الحرجة غادر هنري الثالث، ذلك الإمبراطور الذي لم يكن قد توج بعد، غادر ألمانيا على رأس جيش كبير وعبر «برنر» متجهاً إلى إيطاليا، وهناك عقد مجمعاً كنسياً في بافيا، بعدها تقدم إلى بيسانز، وهي ليست بعيدة عن ميلانو، وشكلت بيسانز معقلاً من المعاقل اللومباردية القديمة، ومركزاً من المراكز الأسقفية (ولم يبق بها من جميع الأبنية القديمة التي ترجع في تاريخها إلى القرن الحادي عشر إلاَّ كنيسة سان سافينو الرومانسيكية) ولا يعرف بالضبط أين عقد الإمبراطور بلاطه، وعلى كل حال وصل البابا غريغوري إلى بيسانز للترحيب بالإمبراطور، وتقديم بركاته له، وقد استقبل البابا استقبالاً محترماً يليق به، وهذه حقيقة يجب أن تؤكد وذلك بالنسبة للحوادث التي ستلي، ولا

يعرف فيما إذا كان البابا قد بقي مع الإمبراطور بعد الاستقبال الرسمي، ولكن يمكننا أن نفترض أنه قد عاد إلى روما، في الوقت الذي استمر فيه الإمبراطور ومنافسوه [أي البابا] يتناقشون حول الوضع في روما، كل ذلك في أثناء غياب البابا هناك، وإن كلمة الوضع في روما لم تشتمل على مجرد الفوضى في البابوية التي تبعت تنازل بندكت عن العرش فحسب بل أيضاً السعي للسيطرة التامة على الأسر النبيلة المتنافسة، مما أدى لفقدان الأمن والانحطاط الاقتصادي والأخلاقي، وكان الأمر الأهم هو الاعتراف بدور الإمبراطور، لأنه بدا وكأن روما قد نسيت أن البابا يجب أن ينتخب من قبل الرومان بمعرفة وموافقة الإمبراطور، ولهذا فإن انتخاب غريغوري كان بمثابة تحدٍ لسلطة هنري، ويبدو أنه ليس من العدل أن نعزو الحوادث التي تلت لمجرد الطموحات والتفاهات الإمبراطورية، فقد كان هنري الثالث نفسه رجلاً شديد التدين وكانت زوجته أغنس Agnes من المتحمسات لمبادئ دير كلوني، وكان هذا الإمبراطور يرى أن الكنيسة لا يمكن إنقاذها إلاَّ بالإصلاح الفوري الكامل، وهكذا أصبح يعمل طبقاً لهذه الحاجة، ولم يكن دقيقاً فقط بل حتى موسوساً في أمر اختيار أصحاب المراتب الدينية، وكان مستعداً للتضحية بالمصالح المادية لخزينته، ومع أن بيع الوظائف الدينية كان معترفاً به لدى أسلافه كمصدر من مصادر الدخل في الدولة، نجده قد حارب هذا المبدأ حرباً لا هوادة فيها بروح رهبانية، لاجتثاث هذا الشر من جذوره، وكان مولعاً بالصيام والصلاة، وقد ظهر في القداس الذي تلا انتصاره على الهنغاريين، وهو حافي القدمين يرتدي الملابس الخشنة وأردية الحجاج الصوفية الخشنة، وعندما أدخل إلى الكنيسة، وعاءً يحتوي على بقايا من صليب الصلبوت، وهو أحد الآثار المقدسة، إذا بالإمبراطور يخر راكعاً ثم يسجد على الأرض بروح من التذلل والتوبة، وفي الصحيفة المصورة بالألوان من كتاب مجموع أوريوس Codex aureus المحفوظ في مكتبة الاسكوريال قرب مدريد، يظهر هذا الإمبراطور على شكل شاب ملتح يحمل الكتاب المقدس بخشوع تام، وقد كان صغير السن حقيقة، فقد كان في الحادية والعشرين عندما توفيت زوجته، وفي التاسعة والعشرين عندما عبر جبال الألب، ومع أنه أظهر منتهى

الخشوع والبساطة في تعامله مع دير كلوني والكنيسة، إلاَّ أنه أظهر إصراراً على الاحتفاظ بامتيازاته في المسائل الأخرى، وفوق ذلك فقط رفض الرأي الجديد الذي كان يحبذه دير كلوني، وهو أن قسم الرهبنة يتضارب مع عهد الولاء للملك، وأصر على ضرورة تبعية الرهبنة للملك، وكان مقتنعاً أن مسؤوليات الحاكم الروماني ورئيس الكهنة، يجب أن تكمّل الواحدة منها الأخرى، وأنه لا يجوز حدوث أي نزاع بينهما، هذا ولم يجرؤ أحد من دير كلوني أن يتصدى لمناقشة أقواله، لأن الجميع اقتنعوا بإخلاص هذا الملك الألماني وتكريسه كل ما لديه من قوة لمصلحة الكنيسة، هذا هو إذن هنري الثالث، رجل شاب متحمس وتقي، غادر بيسانز وكله عزم وتصميم على إعادة تنظيم البيت البابوي في روما، وقد تأثر الناسك ويبرخت، عندما صب جام غضبه على أولئك الرومان الجشعين، الذين لم يتورعوا عن عرض الكرسي الرسولي نفسه للبيع في روما، فوقفت حاشية الإمبراطور وجيشه على بعد ستة وثلاثين ميلاً شمال روما في سوتري التي لا تزال تحتفظ بكثير من الآثار القديمة الرومانية حتى الآن، وتربض هذه المدينة بشكل فاتن يشبه صورة رائعة على تلال تتخللها وديان عميقة، وقد بقيت أسوارها سالمة، دون أن يصيبها أي ضرر، واستخدمت كاتدرائية سوتري مكاناً لاجتماع المجمع الكنسي الرسمي الذي افتتح في أوائل تشرين الثاني، وقد دعي إليه البابا غريغوري السادس، الذي وصل على رأس البطانة البابوية المعتادة، ولا نعلم فيما إذا كان قد أبلغ سلفاً ببرنامج الاجتماع إذ لم تصل إلينا أية تفاصيل عن وقائع الاجتماع، إلا أن الحقائق المجردة أصبحت معروفة، ففي بداية الجلسة، خاطب الإمبراطور الأساقفة بهذه الكلمات الصارمة الشديدة اللهجة: «إنه ليحزنني أن أتقدم بنفسي بهذا الخطاب لممثلي المسيح في الكنيسة، إذ أنه حالما عمد السيد المسيح، وبمحض إرادته وفضله إلى القدوم لتخليصنا وفدائنا، لهذا قال: عندما أرسلكم إلى جميع أنحاء العالم كما استلمتم كل شيء دون مقابل، عليكم أن تعطوا كل شيء دون مقابل، ولكن ظهر أنكم أنتم يا من ينتظر منكم أن تمنحوا الناس ما وهبكم الرب دون مقابل، قد أفسدكم الجشع فوقعتم في الخطيئة والإثم في معاملاتكم، سواء في الأخذ أو

في العطاء، ولقد استحققتم لعنة الآباء المقدسين ابتداء من البابا حتى أصغر حاجب في الكنيسة، وأصبحتم مثقلين بالآثام والذنوب».

من الواضح أن هذا الخطاب، كان موجهاً إلى البابا غريغوري، ولكن ما حدث بعد إلقاء الخطاب، لا يزال غير مفهوم تماماً، وقد دعا المؤرخ بنيزو البابا غريغوري الأبله المعتوه، أو على الأقل، المغفل، بينما ذكر الآخرون أنه كان رجلاً خالي الذهن، ولم يكن يعلم أبداً أنه قد اقترف أي ذنب، ونقرأ فيما كتبه ميجن: «ولكن عندما وصل غريغوري إلى هناك وبدأ المجمع بمناقشة القضية تبين له أنه غير قادر على تفادي أو تدبر الأمر إزاء هذه التهم الفظيعة، لهذا نهض عن كرسيه البابوي، وعرى نفسه من ثياب البابوية، وبطلبه العفو ضحى بالكرامة البابوية»، ونفهم من هذا القول إن البابا لم يعزل من منصبه بل إنه استقال بمحض إرادته، مع أن مجمع سوتري انعقد بعد ستة أو ثمانية أشهر من رفعه إلى مقام البابوية، وقد أكدت السجلات الرسمية للمجمع أنه كان هذا البابا الرسمي الشرعي، وظل كذلك حتى آخر يوم من حياته، أي بعد سنتين وستة أشهر من ارتقائه، ولقد قام غريغوري بتقديم أعذار واهية وسخيفة، مع أنه كان يتمتع باحترام الإمبراطور وبقية الأساقفة، فقد قال في سياق حديثه: «إنه قد حصل على مبالغ كبيرة من المال (من خلال أسرته، وذلك كان معروفاً لدى العموم) وقصد بها إما إصلاح الكنيسة، أو القيام بأعمال أخرى ضرورية للكنيسة»، وقال بعد ذلك برزانة ووقار: «إني أعلن لكم يا إخواني، والله على ما أقول شهيد، إنني ما عملت ما عملته إلاّ لكسب رضوان الرب، ولكن الآن عرفت أن الشيطان قد بدأ بإلقاء أحابيله، فأشيروا علي بما يجب أن أفعل؟» وهكذا اعترف هذا الرجل المسن بجريمة لم يقترفها عن علم، وكتب بورينو Borino، بعد أن درس هذه الحادثة العرضية دراسة عميقة قائلاً: «إن النقود التي دفعها جراتيان لبندكت، لم تكن ثمناً للبابوية، بل لتغطية النفقات التي كان قد دفعها بندكت لأجل انتخابه، وكما نعلم رحب بطرس دامين بارتقائه عرش البابوية، فقد فكر أن «حمامة السلام قد عادت إلى سفينة نوح أخيراً» وقال بول بحذر: «لقد ظهر أن غريغوري كان مقتنعاً بعدم صلاحية بندكت لمنصب

البابوية، فاتخذ تلك الخطوة الجريئة لإقصائه عن ذلك المنصب، ولو بدفع المال لشرائه»، ولا نعلم فيما إذا كان هذا العمل عملاً غير مشروع أي «سمعاني»، فمفهوم السمعانية هو دفع النقود لشراء منصب ديني مرغوب به، ولكن هل هذا يشمل أيضاً دفع النقود لتنحية شخص غير مرغوب به عن وظيفته على يد شخص آخر لا يقره على أعماله المخزية؟، إنني أترك تحديد الجواب على هذه النقطة للناس الذين أكثر تفهماً مني للقوانين الكنسية، وعلى كل حال لم يُدن غريغوري في مجمع سوتري، فقد حيا كل إنسان انتخابه باحترام وارتياح، ولكن طبيعة هذا الرجل الحساس لم تسمح له بالبقاء في منصبه تحت طائلة اتهام فظيع كهذا الاتهام، لذلك رأيناه يخلع شارات شرف انتمائه للبابوية، ثم يتقبل النفي الطوعي، كعقاب رادع مناسب، أما بندكت فقد عزل رسمياً، وحرم من ألقاب الشرف والاحترام، وأما سلفستر فلم يعزل، بل حكم عليه بأن يقوم بالتكفير عن ذنوبه بالإقامة الجبرية في أحد الأديرة.

بعد هذه الأحداث، تقدم الملك إلى روما، حيث حيته الجماهير بسرور وفرح، وفي الثالث والعشرين من كانون الأول عقد مجمع في كنيسة بطرس الرسول، وكان الإمبراطور قد عين سودجار من بامبرج بابا جديداً، ولكنه تقيد بالخطوات والإجراءات المطلوبة طبقاً للاتفاقات الرومانية القديمة، فقد قال عندما خاطب النبلاء الرومان: «أيها السادة، إنني سوف أمنحكم الحرية التامة لانتخاب البابا طبقاً للعادات القديمة، على الرغم مما صدر عنكم من سلوك أرعن لا تفكير فيه فانتخبوا من تريدون من المجمع»، وقد رد عليه المتحدث باسم النبلاء بصراحة مشابهة، وصدق في إبداء الرأي: «عند حضور جلالتكم الإمبراطورية، فليس من حقنا أن نوافق أولا نوافق على الانتخاب، أما عند غيابكم فإن البطريق نائبكم يمثلكم، ومعروف أنه أثناء إدارة أعمال الجمهورية، أن هذا البطريق يمثل الإمبراطور وليس ممثلاً للبابا، ونحن نعترف أننا تصرفنا التصرف الأرعن دون تفكير عندما وافقنا على تعيين الحمقى المعتوهين في منصب البابا، ولكن ينبغي أن تتيح سلطتكم الإمبراطورية للجمهورية الرومانية فرصة التمتع بظل القانون وزينة الأخلاق، مع مدِّ يد المساعدة والحماية للكنيسة».

وبعد انتهاء تلك المراسم الاحتفالية انتخب سودجار أسقف بامبرج بابا واتخذ اسم كليمنت الثاني (مات بعد أقل من عام من انتخابه)، وبينما كانت الاحتفالات بالتتويج الإمبراطوري تقوم على قدم وساق وأبهة وعظمة منقطعة النظير في كنيسة بولس الرسول (هنالك وصف كامل محفوظ لهذه الاحتفالات)، رجع غريغوري السادس إلى قلعة آل بيرليوني، وهكذا انقضى عهد أول بابا من الغيتو اليهودي، وبهذا التواضع العميق الذي تميزت به حياته، والوقت القصير الذي قضاه في منصب البابوية نراه يعد العدة لقضاء بقية حياته في المنفى الذي اختاره لنفسه في كولون، هذا وقد قررت الأسرة أنه لا يجوز لهذا الرجل المسن المتهدم صحياً أن يذهب لوحده، وهكذا اختاروا واحداً من رجال الأسرة الشباب واسمه توسكان لمرافقته، وكان هذا الشاب في الثانية والعشرين من العمر، وهو أحد أقارب البابا غريغوري، ويصفه تاريخ كمبردج للعصور الوسطى «بأنه الرجل الذي رافق قريبه إلى المنفى وأصبح هناك راهباً، تميزت قدراته العملية، وقوة شخصيته بشكل ملحوظ». كما بات يدعى باسم هلد براند، وإن رحلته إلى كولون هي إحدى الحوادث الفاصلة في تاريخ البابوية، وبالتالي في سياق قصتنا الراهنة.